حنّا مينه

أشياءُ مِن ذِكرياتِ طفولَتي

ذِكرياتٌ في رِوايَة

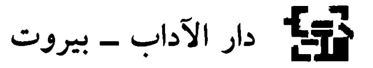
دار الآداب

حنّا مينة

أشياء من ذكريات طفولتي

ذكريات في رواية

رواية


دار الآداب ـ بيروت

أشياء من ذكريات طفولتي/ ذكريات في رواية
حنّا مينة/ روائي سوري
الطبعة الأولى عام 2010
ISBN 978-9953-89-176-7

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 795135 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
e-mail:rana.adab@hotmail.com
Website: www.adabmag.com
Facebook: Dar al Adab

توطئة لا غنى عنها بالنسبة لي وللقرّاء الكرام

لقد أوردت، في الصفحات السابقة، بعض الأشياء التي تخصّ طفولتي بما فيها من شقاء، تحت عنوان «والآن أتذكّر»، أي أنّ الذكريات تعود إلى زمن قديم جدًّا، واخترت عنوانًا لها «أشياء من ذكريات طفولتي». وفي هذه الطفولة، ثم المراهقة، إلى الشباب واستواء الرجولة، أشياء أخرى، لا تقلّ أهمِّيّة عمّا سبق من شقاء، لازمني مدى عمري. وقد قلت في الوصيّة التي نشرتها، وكان لها صدى عالمي، إنّني منذور للشقاء، وإنّني أبصرت هذا الشقاء منذ أبصرت النور، وفي قلب هذا الشقاء حاربت الشقاء وانتصرت عليه. وأُضيف أنّ حياتي المنذورة لديّ، في سبيل الفقراء والبؤساء والمعذّبين في الأرض، قد وهبتها جسدي، الذي أضنته السجون الطوال، والمنافي المماثلة طولاً، حتى صرت في العمر الذي وهن فيه الجسد، أو ما في الآية الكريمة ومنهم، أي من الناس، «من يُردّ إلى أرذل العمر».

وأنا إنسان من الناس، ولأنّني رُددت إلى أرذل العمر، فإنّني أتابع بالقلم بعد عجز الجسد الآن.

لذلك أرغب، أو أنّ قرّائي رغبوا، كما كتبوا إليّ مرّات عديدة، ولا أخفي عنهم شيئًا، أن أُضيف ما أنا فيه الآن، إلى ما كنت فيه سابقًا، لأنّ التاريخ حلقات متّصلة، والإنسان ابن تاريخه الاجتماعي ولأنّ تاريخي، في الزمن الرديء هذا، لا يقلّ رداءة عمّا مضى، فإنّني أتابع، بشيءٍ من الصراحة والوفاء، رواية ما أُلاقي من عناء، وقد ابيضّ الشعر، واحدودب الظهر، في صفحات تبدو منفصلة، لكنّها، في الحقيقة متّصلة، يراني قرّائي فيها راهنًا، كما كنت سابقًا!

الوعي الأوّل بالوجود!

وجه الأمّ، هو الوجه الأوّل الذي يتفتّح عليه وعي الطفل، وقد كان وجه أمّي هو أوّل الوجوه، وأحبّ الوجوه، التي ستتخايل ملامحه لناظري، منذ أبصرت النور، أي منذ تجاوزت الأربعين يومًا من عمري. ولست أدري كيف تشكّلت تلك الملامح، تدريجيًّا، مع تدرّجي في امتلاك الوعي بما حولي، لكنّني، وحتى أغمض عينيّ الإغماضة الأخيرة، سأظلّ أذكر أنّني، بادئ الأمر، أبصرت هالة، كتلك التي سأراها، عندما أكبر، حول وجه مريم العذراء، وداخل هذه الهالة شيء نوراني، دقيق، أليف، طيّب، رائع بما فيه من حنان، ومن أمان، ومن لطف، ومن جمال، ومن دفء يشعّ، في كلّ التقاطيع، كلّ الدوائر والخطوط، ويستقرّ، ويتكثّف، في العينين العسليّتين، الناظرتين إليّ تلك النظرة الودود، وأنا في الحضن الذي كان سريري، ملعبي، أرجوحتي، وكلّ عالمي الطفولي، العالم الذي

سأستمدّ منه طمأنينة داخليّة عذبة أرتاح إليها، فأكفّ عن البكاء، أنا الذي كنت بكّاء، أصرخ وأصرخ ما إن أفارق الثدي، أو أُوضع خارج المهد الأمومي المريح، وأُفارق الذراعين المضمومتين حولي، الحاضنتين للكتلة اللحميّة الحمراء الطريّة الصغيرة التي كنتها.

لقد كانت حاسّة الشمّ هي الحاسّة الأولى التي تفتّحت لديّ ونمت. كنت أشمّ رائحة أمّي فأعرفها، وأفرح بها، وأستريح إليها، وأندغم فيها، وأتنشّقها، وأهدأ لها، وأنعم بها، وأستكين حيث أنا في حضنها، راغبًا أن أبقى ثمّة، أمتصّ الثدي، وأرضع الحليب، وأحرّك يديّ وقدميّ حركات تنمّ عن سعادة وفرحة وبهجة، هي كلّ ما أتمنّاه، وما أريده أن يدوم، وأن أغرق فيه، وأغوص داخله حتى لكأنّني أريد العودة إلى الرحم، أو أخشى أن أبتعد عنها فأبتعد عن الحياة!

إنّ صلتي برحم أمّي لم تنقطع، حتى بانقطاع الرضاع، وحتى ببدء محاولاتي للحبو، والوقوف، والسير، وحتى بشبوبي عن طوق الطفولة اللبنيّة، أي بفطامي، ومباشرتي طعامًا ممّا يتناوله الأطفال، ثم نموّي وامتلاكي القدرة على المشي، وعلى الركض، والضحك، واكتشاف الأشياء من حولي، وتعرّفي إليها، وتمييزي لها، والاستعاضة بها عن القماط والثدي والحضن الأمومي، وتاليًا بالترعرع، ودخولي مرحلة الاستقلال الفردي، حيث أصبح في وسعي أن أتناول طعامي، وأرتدي

ثيابي، وأتدبّر شؤوني، وأفهم أنّني صبيّ، وأنّ والدتي هي أمّي، ووالدي هو أبي، وأخواتي هنّ البنات اللواتي من حولي، وأنّني لست مثلهنّ، وأنّ ثمّة فارقًا بيولوجيًّا بيننا، وأنّ لي امتيازًا عليهنّ، بحكم التربية التي تلقّيتها، والتي كانت سائدة في محيطنا العائلي، وفي الحيّ، والمجتمع، والدنيا الصغيرة التي حدودها مسقط رأسي.

إلى متى تدوم المرحلة الرحميّة هذه؟ وفي أيّ مرحلة من العمر كففت عن الخوف من الابتعاد عن أمّي؟ ومتى انفصمت العرى بين هذا الجسد الذي تكوّن، وانتقل من الصبا والشباب إلى الرجولة والكهولة، وبين حضن الأمّ، وهو ملاذي ومصدر أمني الذي خفت، إلى درجة الذعر، أن أفقده يومًا، كأنّما بفقدانه فقدان الشعور بالطمأنينة والسعادة والدفء والحنان، وكلّ المعاني التي تنطوي عليها لفظة «الأمّ»، هذه التي كانت أثيرة لديّ، لأنّها كانت النأمة الأولى، والكلمة الأولى، والمعنى الأوّل، والفعل الأوّل في كلّ مراحل العمر المتوالية، والمختلفة، لونًا وطعمًا وإحساسًا بالحياة؟

إنّني، صادقًا، أجهل ذلك. ظنّي أنّ المرحلة الرحميّة امتدّت طويلاً، وأنّ وشائجها الخفيّة ما زالت قائمة، وأنّ ظواهرها تبدّت بأشكال متباينة، لكنّها، في المآل، متوحّدة، فالحبّ الأمومي هو الحبّ القلبي، وهو الحبّ الزوجي، وهو الحبّ الأسروي، وكذلك هو حبّ الفكرة، والقضيّة، والكفاح،

والنشوة، وكلّ ملذّات العيش، والعطاء، والبذل، والتضحية، والشعور بالذات، والمسرّة بما أعطته هذه الذات، عملاً في البحث عن مقوّمات الاستمرار الحياتي، وبحثًا عن الخبز بين الناس، والمعرفة بهؤلاء الناس، ومحاولة للتعبير عنهم، في كلّ ما أنجزت من أعمال أدبيّة، كان الإنسان محورها، وكان هذا الإنسان عمادها، ومقصدها، وفخرها، ومنتهاها.

لقد خفت الوحدة دائمًا. ليس معنى هذا أنّني لا أكون وحيدًا، أو لا أنشد أن أكون وحيدًا، وأن يُخلّى بيني وبين أفكاري، لكنّها الوحدة بمعنى الانقطاع عن الآخر، فقدان الآخر، حبيبًا كان أم زوجًا، أم ولدًا، أم صديقًا، أم كتابًا، أم قلمًا، أم ورقة، أم طيفًا! المهمّ أن يكون هناك إنسان، أو ما يقوم مقام الإنسان من أشياء مؤنسنة، أو طبيعة مؤنسنة، أو رؤى مؤنسنة، تخترق الجدران التي أنا بينها، وتجعلني، بشكل ما، على صلة بالعوالم التي أحببتها، وعشتها، وألفتها، ووقفت حياتي على رسمها، في محاولة قلبيّة صادقة لمنحها الرؤية والباصرة والحبّ والسعادة.

ومع كلّ ما عرفت من حبّ، ومن ألوانه، ومسرّاته وشقواته، فإنّني ما زلت بحاجة إليه، لأنّني بحاجة إلى نفي خوفي، فالحبّ هو الأمن، هو الحرّيّة، هو البهجة، ودونه تنفتح تحت أقدامي هاوية الفراغ الرهيب، التي في قاعها أفاعي الجحيم. إنّ المرأة، بالنسبة لي، ليست حبيبة فقط، بل هي أمّ أيضًا. نعم! هي أمّ،

وهي أخت، وزوجة، ورفيقة، وصديقة، وهي نعمى وجود، لو خلت منه لخلا من المعنى، لأصبح فراغًا، عدمًا، شيئًا جامدًا، هامدًا، ميتًا، متاهة أضيع فيها وأنا ألوب بحثًا عن الأمل، عن الحياة، عن الماء، عن الهواء، عن ذاتي التي أنخلع عنها، لأنّها مركّبة من الأنا والآخر، من القلب والقلب، من الدفء والدفء، من الطمأنينة والطمأنينة، من العيش والعيش، من الدافع والدافع، من الأمنية والأمنية، من الجميل والجميل، من الفرح والفرح، ومن الترح والترح، وبكلمة من سرّ الخلق، الذي هو، في آخر المطاف، آدم وحوّاء.

إنّ أكثرنا تطلّبًا للحبّ أكثرنا تطلّبًا للأمن، وأكثرنا حاجة للمرأة أكثرنا خوفًا من فقدانها، وأشدّنا سغبًا إلى اللذّة أشدّنا خشية من الألم دونها، وأدْعانا نشدانًا للحياة الاجتماعيّة أدعانا ذعرًا من الانفراد بالنفس. وفي كلّ هذه النزعات، والمتطلّبات، والأطوار، تأتي الرحم لتكون زورق النجاة، وتأتي الأمّ لتكون المنقذ من الغرق في بحر التجارب المتلاطم، ولأنّ ذلك كذلك، فإنّ المرحلة الرحميّة تدوم ما دامت الحياة، فنحن من الرحم نخرج، وإليها نعود، وليست الرحم لحمًا دائمًا، إنّما هي أرض دائمًا، منها جُبلنا وفيها نتحلّل، فتعود أشياء المخلوق إلى أصولها، ويستردّ الغيض ما أفاء به من دوائر انداحت، وتعدّدت، وتشعّبت، وتنوّعت بتنوّع هذا المخلوق الذي لا حدّ للشبه، وللمفارقة، في تكوينه، ولا ضفّة لنهر سيكولوجيّته المتدفّق أبدًا، والمتغيّر لونًا وشكلاً أبدًا، لأنّه نهر الإنسان، هذا

المعروف المجهول، وهذا الواضح الغامض، ثم هذا المتعدّد المشاعر في لانهائيّة الرقم المفتوح.

بالألم حبلت بي أمّي، وبالألم ولدتني، وبالألم ربّتني، فكأنّ هذا الألم، الذي رافقها طوال حياتها، وتبدّى في صورة خوف عليّ، قد انتقل منها إليّ، فعشت حياتي كلّها وإحساس به يفعم روحي، حتى أترعها، وحتى طفح كيله عن قدرتها على استيعابه، فسال من حوافّ الكأس المترعة التي تجرّعتها قطرة قطرة، في شعور بالاكتئاب سيلازمني صبيًّا وشابًّا ورجلاً وكهلاً وشيخًا، حتى لأصيح، حتى يطغى موجه عليّ، وأغرق في لجّته، متى الموت؟ متى تأتي أيّها الموت الجميل؟

ولقد قلت، في حفلة تكريمي بمناسبة بلوغي الستّين، ما قاله نيرودا: «أشهد أنّني عشت». لقد عشت، وما زلت أعيش، وأُعجب لهذه الطاقة النفسيّة التي أمدّتني بالقدرة على العيش، وعلى الصمود فيه، ومواجهة الشدائد بالابتسام، ثم الارتفاع عليها، وتحويل ما هو ضعف في بنيتي إلى قوّة في روحي، ساعدتني على إخفاء الدمعة وإظهار الابتسامة، وإعلاء شأن الرجولة، لا من حيث هي ذكوريّة مقيتة، بغيضة، متشوّفة على الأنوثة، وقامعة لها، أو محقّرة إيّاها، بل من حيث هي شمائل، يمتلكها الرجل والمرأة، لأنّها شمائل المواجهة والتحدّي والنضال في سبيل أن تزهر شجرة الحياة، وتورق، وتعطي ثمرًا كثيرًا.

وهذه المعجزة في التحوّل، من سقام الجسد إلى عافية النفس، قد كانت صنع فكر آمنت به، فكر حرّ، شريف، كريم، ينشد العدالة وجمال الوجود، ويرفض الظلم وبشاعة الواقع، فكر ملأني همّة على النهوض بأعباء الحصول على الرغيف، والرغبة الحقيقيّة في اقتسامه مع الغير، كما ملأني نخوة لتخطّي عقبات الدرب الصعب، درب الاحتراق، في أتّون المصاعب، في سبيل إنارة شمعة متواضعة تبدّد ظلمة الكون من حولي.

إنّ الصبي الذي كنته، والذي أسعد أمّي، وضع لها بهجة لم تعرف مثلها كما قالت، هو الصبي الذي فرح به الأب أيضًا، ووزّع يوم مولده صدر «المشبّك» الذي أعدّه للبيع، ولم يكن يملك سواه.. وقد أحببت أمّي حبًّا يفوق حبّ الولد، وأشفقت على والدي إشفاقًا يفوق إشفاق الطفل المعذّب بتصرّفات أبيه غير المسؤول عنها، لأنّها كانت تصرّفات سيّئة مصدرها ظروف مجتمع سيّئ، وكنت برًّا بهما معًا، وذرفت دمعًا حارًّا صادقًا يوم غادراني في رحلة اللاعودة.

وأذكر أنّني، يوم وفاة أمّي، أحسست بحرقة أيبست الدمع في عينيّ. لم أبك، شاهدتها مسجّاة ولم أبكِ، قبّلتها في جبينها البارد برودة الموت ولم أبكِ، سرت في جنازتها جَلِدًا، صبورًا، متفهّمًا حقيقة الموت التي هي وجه آخر لحقيقة الحياة، مذعنًا لها، مسلّمًا أمري لقضاء مبرم، هو قضاؤنا جميعًا. وقد تقبّلت التعازي، وأَهَلْت التراب على التابوت، الذي ضمّ جثمان

أعزّ مخلوق لديّ، وقفلت عائدًا، مع العائدين، إلى بيت الأمومة، بيتها هي، التي كانت تلقاني على بابه مفتوحة الذراعين، كلّما أبت من سفر، حتى بلغ بها الأمر، عندما قضت ظروف قاهرة أن أفارقها وأهاجر، أن تنذر إذا عدت وهي حيّة، أن تزحف على ركبتيها من عتبة الباب إلى حيث تقف السيّارة التي تقلّني، وقد زحفت، رغم المطر، والوحل، وبُعد المسافة، وقبّلت عجلات السيّارة ونهضت لتعانقني، وتضع رأسي على صدرها فأشمّ فيه رائحة الأمّ، رائحة الرحم التي تكوّنت فيها ومنها وُهبت الحياة.

هكذا، لم أبكِ أيّام مرضها، ولم أبكِ يوم وفاتها، وتماسكت حتى دفنتها وعدت، فلمّا دخلت البيت الذي خلا منها إلى الأبد، انثالت دموعي، وعبثًا حاولت إيقافها، لأنّها كانت دموع إنسان أيقن، لأوّل مرّة في حياته، أنّ المرحلة الرحميّة قد انتهت، وأنّ عليه، بعد الآن، ألّا ينتظر ذراعين مفتوحتين وصدرًا حنونًا، وهتفة باسمه هي النغم الأحلى، والصوت الأعذب، بين كلّ الأنغام والأصوات. وقد كتبت في اليوم التالي، خاطرة أودعتها كلّ رهافة مشاعري، ولوعتها، وحسرتها. ولئن سُئلت يومًا عن أقرب ما كتبت إلى قلبي، وأشدّه إيثارًا في نفسي، وأصدق تعبير عن إحساسي، فسيكون جوابي هو تلك الخاطرة، التي تجدونها في كتابي «كيف حملت القلم».

إذن وعي الوجود الأوّل هو وعي الوجه الأوّل، هو وعي الوجه الأوّل في حياتي، وجه أمّي، ثم معالم الدار التي وُلدت فيها، وكانت تقطنها عدّة أُسر من العمّال، كلّ أسرة في غرفة، ثم وعي رؤية والدي محمولاً على نقّالة، وكومة من البرتقال أمام البيت، والرحلة من اللاذقيّة إلى السويديّة، هذه الأشياء التي وصفتها في روايتي «بقايا صور»، الرواية التي هي سيرة حياة، وسيرة أسرة، وسيرة الأيّام الخوالي، وهي مزيج من واقع فعلي، بائس، سيقول عنه النقّاد: «ما أشدّ بؤسه»! ومن خيال ابتكر الظلال، إنّما الصورة التي في الإطار هي صورة الحياة التي عشتها، وعاشتها عائلتي، وكنت فيها راويةً أمينًا، لم يُدار، ولم يُحاب، ولم يأنف من قول الأشياء كما وعتها الذاكرة، ولم يخجل لأنّ هذه الأشياء كانت عارية، جارحة، مؤذية لمشاعر من تبقّى من الأهل، لأنّها غير معتادة، وغير مستساغة، وغير مألوفة في السيرة الذاتيّة.

إنّ مكافأة السماء لأمّي كانت ولادتي، فقد عاشت أعوامًا طوالاً على رجاء أن تهبها السماء صبيًّا، فكنت هذا الصبي، وعاشت عمرها كلّه على رجاء أن تهب السماء البقاء لولدها فوهبته، وقُدّر لها أن تغمض عينيها وهي ترى طفلها رجلاً، وهذا ما جعلها تمسك يدي، عند مفارقتها الحياة، وترفعها إلى وجهها، وتضعها عليه، كأنّما تعبّر عن امتنان عميق، وهناءة سابغة، وراحة لذيذة، بعد عذاب المجاهدة مع العيش، والمعاناة مع المرض العضال.

وإنّي لأفهم مشاعر الأمومة الرؤوم هذه، أفهمها لأنّني عانيتها، ولأنّني لمستها في ابتسامتها، وندهتها، ورنّة الفرح في صوتها، حين كانت تناديني باسمي. إنّ عالم العشرينيّات من هذا القرن، بكلّ ما فيه من فقر وجهل وعيش حضيضي، وبكلّ ما كان يحيق بحياتنا وحياة أمثالنا من الفقراء، في المدينة والقرية، يعطي للمرأة مشروعيّة طلب الصبي بهذه اللهفة، وبهذا الإلحاح، وبذلك العناد، وتلك المثابرة على الحمل والولادة حتى يأتي هذا الصبي المنشود، لا لأنّه سيحمل اسم العائلة، ويضمن استمراريّتها فحسب، بل لأنّه، فوق ذلك، سيكون السند للعائلة، والحماية للأمّ والأخوات، ولأنّه، إضافة، مجلبة للفخر، بينما البنت، من زمن وأد البنت، إلى زمن حبسها في البيت، ومنعها من التعلّم والعمل، وحمل همّها بنتًا وزوجة، تعبيرًا عن المثل القائل «هَمّ البنات إلى الممات»! فقد كانت ضحيّة تخلّف المجتمع، ورجعيّة الفكر، وتحميل الأهل وزر ما تصادفه في حياتها، سواء من مغبّة تصرّف الرجل ـ الذكر معها، أو من خيانة البؤس لهيبتها، وسقوطها ضحيّة مجتمع طبقي بالغ القسوة والفساد، كان كلّ ذلك وراء كره مجيء البنت، والترحيب بمجيء الصبي، وليس سوى نضال المرأة، ووقوف أفضل الرجال في صفّها، واعتبار الموقف منها موقفًا حضاريًّا، وسوى الفكر التقدّمي، والتحوّلات الاجتماعيّة، التي غيّرت قليلاً قوى الإنتاج وعلاقاته، من أسهم في نقلة المرأة، في شرقنا هذا، خطوة إلى أمام.

ولن أنسى، ما حييت، عذاب جارة لنا في بيروت، بسبب إنجاب البنات والصبيان. فقد تزوّج ابن عائلة مجاورة لهذه المرأة، وسكن مع والديه، بسبب الحاجة والاضطرار، وحملت زوجه الصبيّة، ففرحت العائلة، لكن فرحها انقلب ترحًا، حين ولدت الزوجة بنتًا. لم تستطع الحماة أن تتقبّل الواقع بالرضى وأشاحت بوجهها عن كَنّتها، التي لم تأثم، ولم ترتكب ذنبًا، ولم يكن في وسعها أن تغيّر من واقع أنّ مولودها البكر كان بنتًا! ثم حملت الزوجة مرّة أخرى، ومرّة أخرى كان مولودها بنتًا، فأخرجت الحماة عصبة سوداء عصبت بها رأسها، طوال مدّة نفاس الكَنَّة الذي استمرّ أربعين يومًا.

اغتمّ الزوج، وبكت الزوجة، وضاق البيت بالعصبة السوداء على رأس الحماة، لكن ذلك كلّه لم يبدّل من واقع أنّ المأساة هي في مجيء البنت الثانية، ومع الأيّام رفعت الحماة عصبتها، ووضعتها في خزانتها، فلمّا حملت الزوجة، للمرّة الثالثة، عانت معاناة شديدة من خوفها أن تلد بنتًا ثالثة، وأن تعود العصبة السوداء، إلى رأس الحماة، ويعود النكد إلى البيت، ويخيّم الغمّ، بشبحه الأسود، على الوجوه، وتلقى الزوجة تعذيبًا نفسيًّا مماثلاً لما لقيته في الحمل الثاني، وحين جاء المخاض أخيرًا، تمنّت الزوجة، كما قالت لي حرفيًّا، أن تموت قبل أن ترى بنتها إن هي ولدت بنتًا، ولسوء الحظّ كان وليدها بنتًا، فأخرجت الحماة العصبة السوداء وقمطت بها رأسها، وتلوّت النفساء من ألم، ومن مكابدة نفسيّة، وتحسّر الزوج،

متوجّعًا لوجع زوجته، ودامت العصبة على رأس الحماة ثلاثة أشهر كاملة، كانت ثوانيها، دقائقها، ساعاتها، مطارق تدقّ صدغي الكَنَّة، التي فكّرت بالانتحار خلاصًا من العذاب، وهربًا من واقع جعلته الحماة، والعادات، والأفكار السلفيّة، فاجعًا إلى أقصى حدود الفجيعة.

في الحمل الرابع قرّرت الزوجة، بالاتّفاق مع زوجها، أن تلد في المستشفى، لتغيير مكان الولادة، استجلابًا للفأل، واستبعادًا للنحس، عسى أن تُرزق صبيًّا، لكنّ الحماة، التي لم تعد تحتمل انتظار المولود، أخرجت عصبتها وقمطت بها رأسها سلفًا، ممّا أبكى الزوجة وهي تذهب إلى المستشفى للولادة، وفي الصباح جاءت البشارة: صبي! فزغردت الحماة، ورفعت العصبة السوداء عن رأسها، وفتحت بيتها لتقبّل التهاني، ووزّعت قطعًا صغيرة من النقود على الأولاد، لكنّها ما كادت تفعل ذلك، حتى جاء خبر آخر أسود من المستشفى: كَنّتها ولدت بنتًا لا صبيًّا، والخطأ هذه المرّة من الممرّضة، إذ جرى تبديل مقصود أو غير مقصود في غرفة حضانة الأطفال، وهكذا أُبلغ الأب أنّ زوجته ولدت صبيًّا، بينما الحقيقة أنّها ولدت بنتًا، وعندئذ عادت العصبة السوداء إلى رأس الحماة، ورجعت الغمّة إلى البيت، وبكت الأمّ، وكاد الوالد يبكي، ولم ترفع الحماة عصبتها طوال عام، وزادت فارتدت السواد، وكُتب على الأمّ أن تموت قهرًا، وتترك أربع بنات يتيمات وراءها.

هذه الحادثة ليست فريدة، ولا هي نادرة، وقد كانت تتكرّر، بشكل دراماتيكي، في حياة حيّنا الفقير، في مدينة إسكندرونة، وأحسب أنّها كانت تتكرّر في كلّ المدن والأرياف، وفي كلّ الأحياء الشعبيّة الأخرى، على نحو أكثر إيلامًا. من هنا، فإنّ فرحة أمّي بمجيئي، أنا الصبي، بعد ثلاث بنات، كانت مبرّرة، كانت فرحة استثنائيّة، لم ينقصها إلّا أنّ الوليد عليل الصحّة، وأنّ خوفها عليه سيلازمها منذ أن ولدته إلى أن تفارقه.

وحتى بعد أن تزوّجت أخواتي البنات، وبقيت وحيدًا مع والديّ، وكنّا نسكن حيّ الصليبة في اللاذقيّة وأعمل حلّاقًا، كانت أمّي تستيقظ باكرًا، فتقرع باب غرفتي منادية باسمي، وتظلّ تقرع حتى أردّ عليها، وعندئذ تنصرف وهي تقول:

ـ نم يا حبيبي، نم!

لقد اطمأنّت إلى أنّني بخير، وأنّني لم أمت في الليل.

هذه الأمّ، بكلّ عذوبتها، حنانها، خوفها، دمعها، ابتسامتها، هي التي سيطالعني وجهها كوعي غير واع للوجود! إنّ مناغاتها، تدليلاتها، مداعباتها، احتضانها إيّاي، ركضها ورائي، وأنا أقفز كأرنب، وإمساكي، ثم وضعي في سريري، هي الذكريات الأولى التي أعيها بشكل مبهم، وفي تهاويل ألوان غاية في التنوّع. لكنّ لون عينَيْ أمّي العسليّتين، وبشرتها الحنطيّة، الأقرب إلى البياض، ووجهها المستدير، الدقيق

التقاطيع، وفمها الصغير، الرقيق الشفتين، كلّ هذه الانطباعات ستشكّل إدراكي الأوّلي لما حولي، تليها صورة الأب، وصور الأخوات، فالبيت والباحة وشجرة التين، والدرب الصغير المحاط بخضرة الحشيش والدجاجات، والقطّة البيضاء، والعصافير، والحديقة الصغيرة أمام الباب، وفيها بعض الزهور، وخاصّة «المنتور» الأحمر.

لقد صنعت من إعجابي الطفولي تمثالاً لأمّي، وملأتْ صورتها البهيّة كلّ شاشة الرؤية أمام ناظري. وسينسرح هذا البهاء من أمّي إلى كلّ امرأة من حولي، ويلازمني في رؤى الطفولة، وتخيّلات الفتوّة، وانبهارات المراهقة، وإعجاب الشباب، وفي الحبّ الذي عرفته مع النساء اللواتي عرفتهنّ بدءًا بالحبّ الخفر لابنة الجيران، وانتهاء بالحبّ النابض/ الحارّ/ الجامح، لكلّ امرأة تذوّقت على شفتيها حلاوة قبلة الرجل للمرأة.

ويعرف القارئ أنّ صور النساء تعدّدت في رواياتي: رسمتهنّ بأمانة، وفق البيئة التي عشن فيها، وكانت هذه البيئة ذكوريّة، والصفات المخلوعة على نساء قصصي ورواياتي هي الصفات التي خلعها الوسط الاجتماعي المتخلّف عليهنّ، وقد صوّرت المرأة في استكانتها، وفي ضعفها، وخضوعها للرجل، وامّحائها، تقريبًا، في الحضور العائلي، وفي سقوطها ضحيّةً للظروف الاجتماعيّة القاسية. وعبّرت عن أحاسيسي بصراحة،

فلم أخف، في رواية «الثلج يأتي من النافذة» تقزّزي من وصف بيع جسد المرأة بالشغل، ذلك أنّ الدعارة ليست شغلاً، إنّها ممارسة أُكرهت المرأة عليها، ونزعت دائمًا إلى التخلّص منها، والارتفاع عن طين حضيضها، بينما الشغل هو العمل، والعمل واجب شرف، وقد قدّسه الفكر التقدّمي، الإنساني، بينما شجب البغاء، ورأى فيه رذيلة اجتماعيّة، لا بدّ أن يتخلّص المجتمع منها، مع تخلّصه من الرذائل الأخرى، التي فرضها عالم استغلال الإنسان للإنسان.

ويتجلّى بهاء المرأة في رواياتي، حتى وهي في وهدة سقوطها، وكذلك في رفضها لهذا السقوط، والتسامي على وضاعة الحياة، والتطلّع إلى الانعتاق من ربقة الارتهان للحاجة، وكشف ما في نفس المرأة من فضائل، ومن حبّ وعطف إنسانيّين، وكيف أنّها تحاول الانتقام لظروفها القاسية، كما امرأة القبو في رواية «الشمس في يوم غائم». لكنّ المرأة تخطئ، أحيانًا، في طريقة هذا الانتقام، فتقع ضحيّته امرأة أخرى، هي معذّبة مثلها، رافضة للسقوط مثلها، غير أنّ قسوة الأوضاع لا تجعل الخلاص ميسورًا، ومستقيمًا، برغم النيّة الطيّبة التي وراءه».

إنّ أمّي هي الأمّ في «بقايا صور» وهي تمثّل كلّ، أو أكثر، الأمّهات الفقيرات، في فترة العشرينيّات والثلاثينيّات من هذا القرن، حيث وطأة الإقطاع، والاستغلاليّة والعبوديّة، تبهظ

المرأة إبهاظًا لا رحمة فيه، ومع ذلك فإنّ المرأة تناضل ضدّ ظروفها السيّئة، وتنزع أبدًا إلى تغيير الوضع المحيط بها، بحيث تعبّر، في نزوعها نحو الأفضل، عن انبثاقات أيديولوجيّة جديدة، تتداخل مع ترسّبات أيديولوجيّة قديمة، وهذا الدخول من القديم في نسيج الجديد، هو عمليّة جدليّة، سنرى المرأة وكذلك الرجل، يقاربانها بعفويّة، لانعدام الوعي بها نتيجة الجهل والفاقة.

لقد رفضت، بإصرار، أن أتّخذ من الجنس مادّة لعملي الروائي، لكنّني، وباعتراف النقّاد، اجترأت على وصف الجنس كممارسة إنسانيّة، بغية رفع الحرم المفروض على الكلام عليه في مجتمعاتنا المتخلّفة؛ فالجنس، في البلدان المتطوّرة، يُدرّس كمادّة مقرّرة في المناهج المدرسيّة، وكلّ ممارسة للحبّ في جوّ الصراحة، والعلنيّة، هي ممارسة صحِّيّة. وسبب كثير من المآسي الناجمة عن قضايا الحبّ في حياتنا الشرقيّة، هو طحلب مستنقعي، ينمو ويتكامل، وتجري مقاربته بطريقة خفيّة، غير صحِّيّة. إنّ الحبّ هو أقدس، وأفضل، وأجمل عطايا الوجود، وعلينا أن نعيشه، وأن نباركه، ونرسمه بماء هو من زرقة البحر على نسب، ومن ضوء الشمس الساطعة على علاقة دافئة، وحميمة.

وإذا كنت، كما قلت، قد وعيت الوجود بوعيي لمُحيّا أمّي، فإنّ هذا المُحيّا الوضّاء قد كان للمرأة في كلّ أعمالي، وهو تعبير عن عاطفة الامتنان بالنسبة للمرأة التي أنجبتني.

الأمّ الخالدة ومفاداتها!

بدايةً، أنا لا أؤمن بالخلود للفرد، من حيث هو فرد، أي أنّه كائن إنساني ذو صفات بيولوجيّة وتمايزات فيزيولوجيّة. فهذا الفرد خُلق ليكون حلقة في سلسلة التواجد الإنساني على الأرض، وهذه الحلقة تتقدّم لتشغل مكانها، دورها، وظيفتها، في السيرورة الحياتيّة، ثم تدخل غيرها، عن طريق الموت الذي هو حياة بالتتابع، أعني أنّ الحلقة الحيّة، بما هي خليّة أولى، تقدّم عطاءها الإنجابي، عن طريق الأمّ التي هي وسيلة الخصب وأداته، ثم تتلاشى الأمّ بالفناء الجسدي المحتوم لتخلّف، قبل تلاشيها، صيرورتها في خليّة أخرى، حلقة أخرى، استبداليّة، أو إداليّة، هي الطفل الذي هو فعل تلاقح بين الوالدين، يرث العمليّة الإنجابيّة ويورثها، وبذلك لا تنقطع السلسلة البيولوجيّة البشريّة، وتتواصل الذراري متتابعة، من الأزل إلى الأبد.

إذن لا وجود للفرد، لأنّه لا خلود للجسد، وهذا قانون

طبيعي، مستقلّ عن الإرادة، ورغبة الإنسان في البقاء، وسعيه العنيد، الضاري، لامتلاك الديمومة، ونفي الموت، أي نفي الفناء الجسدي الإنساني كما في أسطورة جلجامش. وبهذا المعنى، يكون الخلود للنوع وليس للفرد. فالنوع باق، والفرد زائل. وفي هذا النوع الذي يكتسب الخلود، باكتساب الحياة قانون الديمومة، تتجلّى صفات، لا تظلّ هي ذاتها في كلّ عصر، ولا تتشكّل بعينها في كلّ مجتمع، ما دامت الأنظمة الاجتماعيّة تتغيّر، ولكلّ نظام اجتماعي نسقه الاقتصادي، الثقافي، الأخلاقي، النابع من واقعه المادّي.

وحتى الغرائز، التي هي نسيج حواسّ، تتهذّب وتتكيّف، وتتبدّل شكلاً، مع تبدّل الوسط المحيط بنشأة الإنسان، وتظلّ، جوهرًا، وعلامة مميّزة في التصرّف السلوكي، وفي ترجمة هذا السلوك إلى عواطف، نجد لها فروقات بين الذكر والأنثى، وتباينات بين الأب والأمّ، ولوينات قد لا تكشف عن نفسها بصورة جليّة، لكنّها، في كمونها داخل اللاوعي، لا تنتفي أبدًا، ولا تنعدم أبدًا، وهي جاهزة، كلّ لحظة، للبروز في الأداء النفسي أمام الحالات الطارئة، قصدت الانفعالات المنعكسة عن اللاوعي، حيال المواقف الحادّة، التي يواجهها الإنسان بعفويّة، ثم بوعي، وتتحدّد، على أساسها، تصرّفاته التلقائيّة، بأشكال مختلفة.

إنّ هذه الاستجابة التلقائيّة، الغريزيّة، تفرز، مع التزامن

الذي يرافق حياة الفرد، غيريّة تبلغ حدّ التضحية، أمام الخطر الذي يتهدّد الآخر؛ الولد، وهي بهذا تعبّر عن موقف كلّ من الأب والأمّ حيال النطفة التي كانت من صلبيهما، وتتّخذ صفة الغريزة المعمّمة، عبر الأجيال والعصور، بارتقائها إلى نوع من مثل أعلى يحتاجه الإنسان، ويتمشّى مع ناموس الطبيعة، فلا يكون خارقًا لها، مهما يحاول، ومهما يظنّ أنّه يستطيع.

هذه الغريزة ـ المثل، عند الأمّ، نامية بأكثر ممّا هي عند الأب، وهي النزعة البيولوجيّة الخالدة، بخلود المصدر الذي صدرت عنه، أي القلب الذي هو معين كلّ عاطفة في الإنسان والحيوان، وربّما في النبّات أيضًا، لأنّه خزّان الشعور الذي يتطلّب البقاء، عن طريق المحافظة على النوع، ويبلغ درجة المفاداة، في أقصى درجاتها، عند الأمّ. ومن هذا المنطلق، تصبح الأمّ خالدة، أو تكتسب هذه الصفة بعطائها المفتوح، وتضحياتها التي لا حدود لها. وعن هذا المعنى في الخلود، عند الأمّ، أو المرأة الولود، حاولت رسم صورة الأمّ بعامّة، وصورة أمّي بخاصّة، في روايتي «بقايا صور» بقدر ما أسعفت الذاكرة الطفوليّة، في اختزان الرؤى، والمواقف، والانفعالات المنعكسة عن اللاوعي، في ظروف الخطر التي أحاقت بنا نحن أولادها الصغار.

إذن أين هو خلود هذه الأمّ، أو خلود مثلها الأعلى، الذي تجسّد في السهر على عائلتها الصغيرة، بناتها وابنها، في غياب

الأب الدائم الترحال؟ وكيف واجهت الحياة، بعد انتقال عائلتها، من اللاذقيّة إلى السويديّة، إثر مرض الزوج، واضطرار العائلة إلى الهجرة؟ «بقايا صور» وبعدها «المستنقع» ثم «القطاف»، هذه الثلاثيّة التي ما زالت مفتوحة لأجزاء مكمّلة في السيرة الذاتيّة، تقدّم الإجابة عن هذين السؤالين، وعن كلّ الأسئلة المتفرّعة عنهما. . فملحمة البؤس، إذا جاز أن يكون للبؤس ملحمته، أو مهاد الشقاء، الذي على أرضيّته تدور الأحداث، أو الأرض غير الطيّبة في قفرها، وريحها، ومطرها، ووحلها، وحرّها، وكلّ النبت الشوكي الذي كان مفروشًا على طريق آلام العائلة التي تعصف بها زوابع من غبار النار، هذه كلّها تتناسج لتعطي سيرة ذاتيّة، نادرًا ما كانت سيرة ذاتيّة أخرى - حتى عند غوركي نفسه - في مثل قسوتها، وقتامها، وتشظّيها، وارتطامها بصخرة واقع مرير، معذّب، إلى درجة معانقة الصليب على خشبة، مساميرها صدئة، ومنها سالت دماء الأمّ الخالدة، المصلوبة، دون أن يكون لها من جلّادها حظّ يبلّل شفاهها اليابسة حتى بإسفنجة الخلّ!

السويديّة مرفأ على المتوسّط، مدينة فينيقيّة قديمة، وهي مصبّ نهر العاصي ومرفأ أنطاكية كما تسمّيها الجغرافيا، وفي هذه البلدة، أو القرية الكبيرة، إبان العشرينيّات من هذا القرن، تجد عائلة الطفل نفسها مزروعة في حقل للتوت، هو هو في الاستعارة حقل للتين الذي شنق على إحدى أشجاره يهوذا الأسخريوطي نفسه! وفي هذا الحقل، حيث تربية دود الحرير

هي العمل الأساس، والمورد الرئيسي للعائلة، سيضع الأب عائلته ويرحل، ويظلّ يرحل، ويعود ليرحل من جديد، مرّة بائعًا متجوّلاً، ومرّة قالعًا لعروق السوس، ومرّات كثيرة دون غاية أو هدف!

«في الشتاء» غاب وطالت غيبته، كان شتاء قاسيًا، وقد وعيته جيّدًا ـ يقول الطفل راوية الأحداث، ـ بسبب هذه القسوة، ولأنّه أوّل شتاء لنا في ذلك الحقل الضائع بين الحقول، المحفوف بكلّ أنواع الترقّبات والمخاوف.

«مطر، مطر، مطر، جوّ رمادي، والسماء، على مدى البصر، فضاء عبوس، كأنْ لا شمس، بعد، ولا قمر، مطر، ولا شيء غير المطر. سيور من ماء، صبيب غربال لا حدّ لسعته، وحقول جرداء من كلّ الأطراف، ومطر، وأنا، في الأصباح، في الأصائل، أراقب المطر، أتابع، وسط الوحول، كيف تتشكّل فقّاعات الماء وتمضي، وتنطفئ، لتتشكّل، وتنطفئ، ومن الأغصان العارية تنقّط دموع، وتنطفئ، وشيء ما، كالأغنية ذات الأنين، كالنواقيس البعيدة، كصلاتنا في العشيّات، يوقّع لحنًا خاصًّا رتيبًا وحزينًا!

«مطر، مطر، مطر، ولا شيء غير المطر، والأمّ، حول الموقد، تحكي عن الله والبشر، عن نوح وسفينته والطوفان الذي حدث، تقول: «أربعون يومًا، أربعون ليلة، ظلّ المطر، ودخل نوح الفلك، ونجا هو ومن معه من الغرق، والحمامة،

طارت، فوق الماء، وعادت حاملة غصن الزيتون، وفي الأفق، كان قوس قزح، إنّما البشر، الذين نجّاهم الله من الخطر، عادوا إلى الخطيئة، تباغضوا، كفروا، ولا بدّ أن يحدث الطوفان، كرّة أخرى، إذا لم يتوبوا، ويكفّوا عن الأذى.

«وكيلا يحدث الطوفان، وليكفّ الناس عن الأذى، وحتى يأتي يوم يرعى فيه الذئب والغنم، كانت الوالدة تبتهل إلى ربّها وتسأله الرحمة والغفران. ومنذ حكايتها عن نوح والفلك والطوفان، خُيّل إلينا أنّه إذا دام المطر أربعين يومًا وأربعين ليلة فإنّ الطوفان واقع لا محالة! صرنا نعد الأيّام وننهض كلّ صباح لنرى أين بلغ الماء. كان نوح يتبدّى لنا عجوزًا ينشر الخشب ويصنع الفلك، وكنّا نتخيّل الحمامة وغصن الزيتون وقوس قزح فنطمئنّ، ثم يعاودنا القلق فنسأل الوالدة: «إذا ظلّ المطر أربعين يومًا يحدث الطوفان ونغرق جميعًا؟» فتسكت تارة، وتنفي أو تؤكّد طورًا، وكان غياب الوالد يزيد في قلقنا، فنسألها:

ـ لماذا تأخّر هذه المرّة؟

ـ انقطع بسبب المطر.. حين يصحو الطقس يعود.

ـ وإذا لم يصحُ؟

ـ لا بدّ أن يصحو.. هذه لزمة مطر!

ـ ومتى تنتهي؟

ـ حين تشبع الأرض!

ـ ومتى تشبع الأرض؟

ـ لا أعرف!».

إنّ حكاية الطوفان هذه ترسم لوحة ذات وجهين: الخوف من الغرق، إلى حدّ الشعور بالكارثة ذات الرهاب الأسطوري، والأمل في أن يكفّ المطر وأن تنجح العائلة في النجاة.. الجوّ، الغيم، الريح، المطر، الظلمة، الوحدة وسط حقل مقفر، غياب الأب، هلع الأمّ وهي تحتضن، كيمامة، أفراخها، كلّ ذلك يعطي لمدخل الرواية المهاد المأساوي الذي سيستغرق الرواية كلّها، وعلى مدى هذه الرواية، أي على مدى عقد من الزمن هو عقد العشرينيّات، حيث التشرّد والضياع في الريف، وعلى مدى عقد الثلاثينيّات الذي يليه في «المستنقع»، ستبقى الأمّ هي السند الذي يدعم العائلة ويقيها السقوط وانفراط العقد. ورغم خوفها، قلقها، ذعرها، معاناتها في الحصول على الرغيف، وفي طلبه، بدموعها، من المختار في السويديّة، أو من الأرملة جارتها، أو القيام بخدمة الناس لتوفيره لصغارها، فإنّها تكافح ببسالة نادرة، بمفاداة قدسيّة، بنكران ذات تعرفه الأمّ وحدها، كي تحمل صغارها، في فلك من صنع حنانها هذه المرّة، وسط طوفان الخوف والفقر والمذلّة، إلى يوم تتلامح في أفق حياتها تلك الحمامة وفي منقارها بشارة الخلاص.

مثل هذه الأمّ تصبح خالدة بصنع مثلها الأعلى الخاصّ.

وهذا المثل الأعلى، في كلّ التضحيات التي يتطلّبها، والتي تبذلها الأمّ حتى لو اقتضى ذلك تقديم حيلتها قربانًا على مذبح تخليص أولادها من الموت جوعًا، وحمايتهم من اللصوص، والقتلة، وقطّاع الطرق، بوضع جسدها متراسًا بينهم وبين السهام، الخفيّة والمنظورة في آن، الموجّهة إليهم من مجهول، هو مثل أعلى نادر في الطبيعة التي ينبثق عنها، وهو مثل كلّ أمّ، في مثل فقر وخوف وضعف أمّنا التي حمتنا، والتي جعلت من جسدها طوق نجاة تعلّقنا به حتى بلغنا شاطئ السلامة.

ومن يقرأ رواية «بقايا صور» جيّدًا، سيجد أنّ لوحة الطوفان هي لوحة الخوف والشقاء والبؤس الاجتماعي الأشدّ فجائعيّة، وكلّ عناصر هذه اللوحة أسطوريّة، وهي تنسرح، على مجمل الأحداث، وتحدّد الطابع التراجيدي فيه. فالفقر، والظلمة، والريح، والمطر، والخوف من الليل، ومن اللصوص، عناصر تظلّ ملازمة، بأشكال مختلفة، لحياة العائلة التي تنهض الأمّ من بين أنقاض خرائب الحياة من حولها، لترتفع بعائلتها الصغيرة فوق هذه الخرائب، حتى ليدفع هذا المشهد الطويل، للعذاب الإنساني، ناقدًا مثل جورج طرابيشي إلى القول، في كتابه «الرجولة وإيديولوجيا الرجولة»: «ما أخطأ النقّاد حينما اعتبروا ـ بقايا صور ـ المستنقع ـ ملحمة للبؤس» وإنّ «الصفحات التي تتحدّث عن معاناة الأمّ، وبخاصّة في «بقايا صور» تكاد تفلح في أن تصف ما يندّ عن الوصف».

الواقع أنّ معاناة الأمّ، في جُزءَي السيرة، ليست وصفًا استمدّ ابتكاريّته من قلم نجح في أن يُعبّر عن خيال خصب وقادر على الرسم بالكلمات، فهذه المعاناة، كانت واقعيّة «والوصف الذي يندّ عن الوصف فيها» كان أمينًا لهذا الواقع، في انعكاسه في الذات، واختماره فيها، حتى غدا ذاتًا من الذات، أو ذاتًا إبداعيّة كان في مقدورها، وحدها، أن تقدّم واقعًا فنّيًّا على هذه الدرجة من السهولة والصدق.

وفي المقاربة الضروريّة للنصّ، سنجد صورة هذه الأمّ الخالدة في موقفين متباعدين من حيث الزمن، متلازمين من حيث المعاناة الفائقة القسوة، القادرة على أن تكتب وضعها بحبر واقعها الأسود: الموقف الأوّل نجده حين ذهبت إلى مختار السويديّة، تشحذ شيئًا ما، لإطعام أطفالها:

«حين صحا الجوّ، ذات غروب، رأينا قوس قزح في السماء، وبعده توقّف المطر.. وفي الصباح ذهبت الأمّ إلى المختار لتستدين بعض الأغراض، وكان المختار ينوي إرسال الحارس إليها، ليطلب منها أن تأتي إليه، فسبقت هي وذهبت، وهناك وقفت أمام الدكّان كمتسوّلة فصاح بها:

ـ يا بنت الكلب! لن تعودي اليوم إلى البيت. لن يروا وجهك. سأحبسك هنا حتى يأتي زوجك الذي هرب من البستان.

«حاولت الأمّ أن تشرح له وضعنا، فسحب عصاه وخرج إليها. ركض رجل فأمسك بالعصا، وتقهقرت الأمّ ما استطاعت، لكنّ قدم المختار طالتها في بطنها، فسقطت على الوحل تنشج وتستجير:

ـ يا مختارنا! ارحمنا يا مختارنا!

«هوت العصا، كانت الضربة طائشة أصابت كتفها، تراكض الرجال فأحاطوا بالمختار وأبعدوه عنها، أعادوه إلى الدكّان بعد رجاء وجهد، وبقيت الأمّ على الأرض، من تحتها وحل، ومن فوقها رذاذ، والسماء غائمة، والريح أطارت المنديل، ودموعها تجري، ورأسها مطرق، تتمنّى أن تنشقّ الأرض فتغور بها.. لكنّ الأرض كانت صلبة، كانت رحيمة وصلبة، فلم تنشقّ وتبتلعها، ولعلّها ترأّفت بنا نحن أولادها الذين كنّا ننتظر في البيت الضائع بين الحقول!

«نهضت الأمّ مترنّحة، ومنديلها بيدها.. كانت تبكي وتبتهل أوه يا الله! يا الله! لكم تضرّعت إليك لا تكشف رأسي، وها أنت، لتمتحنني، تكشفه؟ لتكن مشيئتك، وليكن، كما قال أيّوب، اسمك مباركًا، ولتكن عينك، التي لا تنام، حارسة وشاهدة على حالنا.

«كان حذاؤها الموحل بيدها، وكفّها على موضع الضربة في بطنها، وتحت أقدامها مسامير، على ظهرها خشبة، ومن حولها

كلاب تهرّ. . إنّها منبوذة من العالم، تسير فيه كتلة من القهر والعجز معًا. . جلست، بين الحقول، على تخم لا يمرّ به أحد. هنا تستعيد شعورها بالحياة وبالزمن. سيكون في وسعها، بمنجاة من العيون، أن ترفع رأسها وتلقي نظرة على ما حولها، على داخلها، على ماضيها وحاضرها، أن تتأكّد أنّها لا تزال إنسانة، وأنّها لا تزال قادرة على مواجهة الناس، وعلى تقبّل الأذى واحتماله. ستتحمّل المزيد في سبيل الذين هناك، في سبيل إطالتها، في البيت الضائع بين الحقول، إنّما عليها أيضًا، أن تواري كلّ شيء هنا، تطمره في الأرض نبتة قهر، غرسة حقد، نواة غضب، للزمن المقبل، حين يكبر الصغار، ويحصلون على رزقهم بأنفسهم».

المثل الأعلى للأمّ، في هذه الواقعة الأكثر إيلامًا، الأشدّ قهرًا وذلّاً، والأكثر عطاء للنفس في عمليّة افتداء نفوس الأبناء الصغار، يتجلّى لي في نكران الذات الشخصيّة، وتحمّل الألم إلى درجة تشي بحالتين: حالة مازوشيّة لو أردنا الانسياق وراء التحليل النفسي، حيث تعذيب النفس ينبع من مطلب داخلي، غير إرادي، وحالة أموميّة تعلو بالعاطفة إلى ما هو أعلى من الفداء، إلى تقبّل الفناء، حتى الحياتي، في سبيل إنقاذ الآخر: الطفل الجائع، كما تتجلّى هذه الأمومة، في حالة أخرى نادرة، أو مستحيلة عند الكائن البشري، إلّا إذا كان هذا الكائن أمًّا، حيث تنفتح التضحية على المدى الأرحب، غير المحدود حتى

بحدود الظنّ، فنستطيع أن نتفهّم فعل الفداء هذا بأنّه الموت في سبيل الحياة: موت الذات كي يحيا الذين انبثقوا عنها، وتقديم الجسد للعدم، كي لا يطال العدم فلذات الكبد، وهنا يغدو المثل الأعلى شهادةَ خلود من النوع المعجز، إلّا في ذات الأمّ، بشريّةً كانت أم غير بشريّة.

يوم رأينا الموت.. من خلال الجوع!

مفاداة الأمّ لا حدود لها، والأمّ التي نسيت، في مفاداتها، تاريخها الاجتماعي، تسمو بعواطفها الأموميّة على كلّ كائن آخر غيرها، لأنّها نبت ملائكي، منذورة للتضحية، التي يراها الأب، في جبروته العنتري، ضعفًا مرتهنًا لجبروته، فيمعن في إذلالها، في اضطهادها، إلى درجة محوها من الوجود لو استطاع ذلك، وكثيرًا ما يستطيع، فيكون امّحاؤها، هنا، معنويًّا لا مادِّيًّا.

إنّ الإنسان ابن تاريخه الاجتماعي، ومنذ انتهى العهد الأمومي، الذي استلبه الأب اغتصابًا، أمعن انتقامًا، في قمع الأمّ، إلى حدّ القهر اللاإنساني، فلا يتبقّى، والحال كذلك، أمام الأمّ، سوى المراوغة. الشاعر إلياس أبو شبكة قال: «إنّ النساء إذا راوغن لا عجب» إلّا أنّ أمّي، في طبيعتها، رفضت المراوغة أو أنّها لم تتعلّمها أصلاً، وقد استغلّ أبي هذه الطيبة،

ليمعن في انتهاك إنسانيّة أمّي!

أذكر، وأنا ابن ثلاث سنوات، أنّ أبي انهال ضربًا على رأس أمّي، وعلى كتفيها، وظهرها، وسائر أنحاء جسدها الأنثوي. وقد دُهشت، واستفظعت هذا الفعل الوحشي، فبكيت، وركضت إليها، لأحميها من ضرب أبي، لكن هذا ضربني، ركلني، أبعدني واستمرّ في ضربه المبرّح، وأمّي تصرخ من الألم، مستغيثة ولا مغيث.

منذ ذلك اليوم كرهت أبي، كرهت الذكر في إهابه، وأحببت أمّي، حبًّا جنونيًّا، في أنوثتها التي لا تعرف ردّ الأذى عنها، أو الوثوب على هذا الأذى، مباشرة أو عن طريق المراوغة، كما تفعل النساء غيرها. وأضمرت أن أنتقم لها، أن أردّ الأذى عنها، وقد نجحت، منذ أصبحت يافعًا، في منع أبي من ضرب أمّي لكنّني لم أنتقم لها منه، لأنّه يبقى أبي، وعليّ واجب احترامه، وواجب التأبّي عن إهانته، جرّاء ما أهان أمّي وأنا طفل صغير.

لقد امتلكت المرأة حرِّيّتها من خلال العلم والعمل، وكان تحرّرها مع بداية العصر الصناعي في أوروبا، إلّا أنّها، هناك أيضًا، لم تتحرّر من عسف الرجل كلِّيًّا، وهذا ما أعجب له الآن، وقد صرت في الكهولة، حين أقرأ، أو أسمع، عن اضطهاد الرجل الأوروبي للمرأة، وعن تمادي هذا الاضطهاد بصورته الأبشع: ضرب المرأة! وهذا ما يحدث كثيرًا في

الغرب، وفي الولايات المتّحدة الأميركيّة خصوصًا!

إنّني، في هذه الذكريات، أو طيوفها على الأقلّ، لن أدخل في تفصيلات ما تعانيه الأنثى من الذكر، أو المرأة من الرجل، في هذا الشرق ومجتمعه الذكوري، لأنّ ذلك يتطلّب دراسة متكاملة، أو كتابًا كاملاً، إلّا أنّ هذا العزوف عن التفصيل لا يقتضي، بأيّ حال، أن أمتنع عن التنويه، وبغير قليل من الخجل، بتصرّفات الرجل المهينة بحقّ المرأة، وإذعان هذه المرأة لباطل الرجل في الاعتداء عليها بكلّ أشكال وألوان الاعتداء.

وقد قصّت عليّ امرأة خادم في البيوت، أنّ زوجها لا يشتغل، وأنّ أمثالها، قرب قرية سبينة في ضواحي دمشق، يشتغلن خادمات كما تفعل هي، وأنّ الرجال هناك يجلسون في البيوت شتاءً، وأمام البيوت صيفًا، يشربون الكحول، أو يلعبون الورق، أو يتسلّون بفصفصة البذور، حتى تعود نساؤهم من العمل، فيكون على هؤلاء النسوة، إضافة إلى الخدمة في البيوت حتى المساء، أن يطبخن ويغسلن، ويتحمّلن، فوق ذلك، ضرب هؤلاء الرجال العجائز، وطردهم إيّاهن من البيوت لأتفه الأسباب، لأنّ هذا عرف مُتّبع في ذلك الحيّ المستنقعي، الذي يتمرّغ فيه الأطفال، ويتعلّمون فنون الشقاوة والإجرام، بدل الذهاب إلى المدارس، وتعلّم ولو مبادئ القراءة والكتابة!

هذا مثل واحد، من عشرات الأمثلة، على رزوح المرأة،

الأمّ، تحت وطأة إبهاظ الزوج ـ العنترة، الذي يعتبر ذلك حقًّا له، وواجبًا تقوم به الزوجة حياله، وفي هذا المثل بعض دلالة، على معاناة رهيبة، تدخل في دائرة مفاداة المرأة في سبيل أولادها وأسرتها. وكشاهد على هذه المفاداة، أسوق حكاية تلك الأمّ التي هاجم أسدٌ طفلَها، وتمكّن منه، بحيث صار في متناول أنيابه، فقامت الأمّ بمأثرتها العظيمة، مأثرة امتلاك الجرأة على عدم الهروب، وعدم الاستجابة لغريزة حبّ البقاء، وهي الدافع إلى النجاة بالنفس، لأنّ حبّ الافتداء الغريزي الأمومي حدا بها إلى التقدّم من الأسد، والركوع على القدمين أمامه، في حركة ابتهاليّة، فهمها الأسد بالغريزة أيضًا، فترك الطفل، وابتعد عنه معلنًا، حتى في ذاته غير الواعية، تمجيده الواعي للأمومة، التي تعطي نفسها فدية عن طفلها.

في هذه الحكاية الواقعيّة وغير الواقعيّة في آن، الأسطوريّة وغير الأسطوريّة معًا، يصير ما هو في نطاق غير الممكن ممكنًا، ويتجلّى، كسطوع الشمس، المثل الأعلى الأمومي، الذي يسمو بالتضحية إلى ما هو فوقها، وبالمفاداة إلى ما هو معجزتها، صيرورتها، ارتفاعها عن الطبيعي، وعن المتعارف عليه، وعن المألوف، حين تتغلّب، تلقائيًّا، المحبّة على الموت، وبين نزعتيهما شاسع في البعد، في كلّ نفس، إلّا نفس الأمّ، التي فيها وحدها يكون الحبّ، كما في البطولات الخارقة، هو الحبّ الأقوى، لأنّها تعطي وجودها كلّه لهذا الحبّ، في عطائها وجودها نفسه للذي، في أزليّة مبدأ الخصب

الكامن فيها، سيكون خصبها، ثمرة بطنها، طفلها وديمومة الحياة من بعدها، وديمومة الذرِّيّة التي كرّست الطبيعة الأمّ حافظة عليها، بحفاظها على بقاء النوع، أكثر من حفاظها على بقائها الشخصي، وما فيه من غريزة أولى، أعلى، أشدّ تحكّمًا، ما دامت الأشدّ انسجامًا مع ناموس الطبيعة، باعتبارها غريزة البقاء التي تعبّر عن تصرّفها العفوي، اللاشعوري، تعبيرًا تلقائيًّا في كلّ كائن حيّ.

أمّا الموقف الثاني، في اندفاعة الأمّ اللاشعوريّة حفاظًا على ثمرة خصبها، على ولدها، صبيًّا كان أم بنتًا، فإنّه ليس موقفًا مفردًا.. إنّه مواقف، تغطّي «رواية بقايا صور» إذ تغطّي مرحلة طفولتي وطفولة أخواتي. لقد ذهب الوالد، بعد نكبة الحرير الطبيعي، وتركنا في البيت المهجور، بغير طعام، بغير نار، بغير حماية، والدنيا أواخر الخريف، وتوجّهت الأمّ إلى بيت المختار لتطلب شيئًا ما نقتات به، فطردوها وعادت فارغة اليدين، وبدا لها، في نوبة اليأس، ألّا مخرج لنا من ورطتنا، وأنّنا ميّتون جوعًا لا محالة. «كان الوقت عصرًا، وكان عصرًا تشرينيًّا باردًا، وقالت الأمّ إنّ علينا أن نذهب إلى الحقول، ونجمع من التخوم ومجاري المياه أنواعًا من الحشائش ستدلّنا عليها... رفضت البقاء في البيت، فألبستني ثيابًا شتويّة، وقمّطت رأسي بمنديل، وحملتني ومضينا إلى غدير قريب ومعنا سلّة، وفي يد الأمّ والأختين سكاكين وشرعن، ثلاثتهنّ، باقتلاع عشبة الحمّيضة» التي سلقتها لنا وأكلناها.. هذه الوجبة

الحشيشيّة كانت خدعة غذائيّة خلّفت حزّة في أسناننا، وغثيانًا في أمعائنا وإسهالاً بلغ حدّ المرض برغم الملح الذي أكثرت منه الأمّ. مع ذلك كان لا بدّ لنا من هذا الحشيش، وقد حسبت الأمّ أنّ الإسهال المتسبّب عنه يزول بشرب الماء الساخن! وفي صباح اليوم التالي كنّا على حال من الإعياء، بسبب القيء والإسهال، ألجأنا إلى الانكفاء في ركن البيت، صفر الوجوه، ذابلين كأغصان شجرة قُطعت وأُلقيت في شمس تمّوز، وزاد هلع الأمّ ذلك الورم الذي ظهر في وجوهنا وأطرافنا من جرّاء بثور الجرب.

إنّ جسوم الأطفال، حين ينهكها الضعف أو المرض، تنقلب حيويّتها إلى شلاوة تستدرّ الإشفاق والجزع، لا يبقى عندئذ من الطفل سوى عينين تنظران بانكسار ولامبالاة، هو لا يعرف ما ينتظره، يصير في هلاميّة الاستسلام رخوًا كشلّة الحرير، يذبل وتنفرج شفتاه عن أسنانه، ويكفّ عن الحركة، ويلاحق صامتًا أمّه بنظرات مودّعة ضارعة.

كنّا نحن أولئك الأطفال.. لقد أهزلنا الجوع، وهدّنا الإسهال، وتراخينا كأوراق مبلّلة، وعلى فراش في الزاوية تمدّدت، ولم تلبث أختاي أن تكوّرتا قربي، وغطّتنا الأمّ التي ازدادت الآن نحولاً! وفي الاستجابة لنداء الجسم المكدود كان طبيعيًّا أن تُلقي بنفسها على الفراش وتغمض عينيها.. إنّ الحياة والموت يصبحان في وهن الجسم وهنا في الصراع، يكفّ

الصراع، والموت يزحف حاملاً ملاءة غيم أسود.

«ذلك الصباح كان غير أسود، كان بردًا، وكنّا شموعًا صغيرة. أعقاب شموع صغيرة تنوس وتوشك أن تنطفئ، كان يكفي أن تغلق أمّنا الباب، وتأتي إلينا، وتضطجع مثلنا، تاركة للغيمة أن تغمرها، وللراحة أن تشملها، وللبيت الطيني أن يوارينا، حتى يفطن إلينا من يوارينا الثرى».

هذه لوحة تقول ذاتها. مأساة تتحدّث، بكلمات نازفة، عن هول الواقع الذي لا وصف لفجائعيّته. إنّه، في تعاسته، يرسم صورة مركّبة من الأسى والدمع للتعاسة الخرساء، حين يبلغ البؤس أن يعزف، على قيثارة الشقاء الإنساني، لحن وداع لميتة جماعيّة، ميتة عائلة بكاملها من الجوع والمرض المتولّد عن أكل حشيش الأرض لحفظ الحياة في جسوم منهكة، هذا الحشيش الذي كانت تجهل الأمّ، في ذعرها الأمومي خوفًا على أطفالها، أنّه حشيش ضارّ، وأنّه سيؤدّي بها وبأطفالها إلى الكارثة.

الأطفال استسلموا لقدرهم، الموت نوم ثم لا شيء، والنعاس فاتحة النوم، وذبول الجسوم الصغيرة أوصل هذه الجسوم إلى الخدر النعاسي، ولم يبق إلّا أن يطبق الأطفال جفونهم ويناموا، مع أمّهم، النوم الأبدي. لكنّ الأمّ، وهي جائعة، ومريضة، ومغمورة بضبابيّة غازيّة مسمّمة، شُلّت فيها القدرة على الحركة، تنتفض فيها روح الأمومة، فتحاول النهوض وتسقط، وتحاوله من جديد وتسقط من جديد، وبعد

عدد من المرّات تفلح أن تقوم، هي الميتة، من بين الأموات، بإيحاء من ندهة قاسية، كالتي جعلت أليعازر ينهض، بل بإرادة المثل الأعلى، الأمومي، المفادي، مجترح المعجزة، لأنّه هو، في معنى معناه، معجزة، فتتحامل على نفسها، وتجرجر قدميها، لتبلغ أيّ بيت، أو ترى أيّ مخلوق، تستنجد به لإنقاذ أطفالها.

كان البرد شديدًا، وكانت الحقول مقفرة، والبيوت مهجورة، ولا أحد في تلك الأنحاء، بسبب الهجرة الجماعيّة للناس الذين دفعهم الجوع إلى ترك البيوت والحقول، والسير في الدروب المجهولة بحثًا عن اللقمة، التي تمسك فيهم ما تبقّى من رمق الحياة.

وتقول الأمّ، حين تروي بعد ذلك هذه الحادثة لأطفالها، عندما يكبرون: «خرجت إلى العراء، كانت الريح تلطمني، تشدّني، تدفعني، وخارت قواي فاستندت على الأشجار، وسقطت فخُيّل إليّ أنّني لن أقوم بعدها ولن أراكم أبدًا. تمنّيت الرجوع إليكم كي أراكم، كي أودّعكم، ورحت أصرخ عسى يسمعني سامع على الدروب أو بين الأشجار، وتمسّكت بشجرة فنهضت، ونظرت في كلّ الجهات، ولوّحت بيدي ومنديلي، فلم ير أحد يدي أو منديلي. صوتي ضاع في الريح، وجاء المطر فبلّلني، صارت الأرض طينًا، وفي الطين خوّضت، رفعت رأسي إلى السماء، إلى الربّ، وسألته، ورجوته، وابتهلت إليه من كلّ قلبي، ابتهلت طويلاً، بغير كلام، حين عجزت عن

الكلام، وكففت، بعد ذلك، فلم أعد أصرخ أو ألوّح، ولم أُفارق شجرة التوت التي أتمسّك بها خوف السقوط، احتضنتها وأغمضت عينيّ، وراح المطر يغسلني، وأنا أرتجف من البرد والبلل والإعياء.

«المرأة الصالحة أنقذتني. الأرملة، جارتنا، التي قالوا إنّها خاطئة أنقذتني، لا تصدّق كلّ ما تسمع يا بنيّ. الربّ وحده يعرف. هو وحده يرى ويحكم. وهي ستدخل الجنّة إن شاء الله، وأنا أدعو لها بدخولها، وستدخلها ولو كانت خاطئة، ولو أحبّت الرجال، وأحبّت زوجي، فالله يغفر للخُطاة، وسيغفر لها ويجزيها الخير دنيا وآخرة. كانت هذه المرأة شجاعة، قويّة، طيّبة، وأنا قبّلت يدها، نذرت ووفيت، قالت لي: «أنا خاطئة لا أستحقّ» فقلت: «بل أنت التي تستحقّ» ثم تصادقنا، وتعاشرنا، وبكينا حين افترقنا، ورفعت غطاء رأسي ووضعته على رأسها. فعلت ذلك كي لا ينكشف رأسها، كي يسترها الله ويحفظها ويعوّضها عن زوجها الذي مات».

إذا قلنا ألّا أحد يعرف المرأة مثل المرأة، فهذا يكاد يكون من نافل القول، ولكن أن تصل لهفة الخوف بالأمّ على أطفالها، أن تخرج، في ذلك الجوّ الرهيب، لتبحث عمّن يساعدها في إنقاذهم، وتبلغ بها الإرادة الأموميّة هذا المبلغ من التحدّي، والتسامي، واحتمال الأذى لدفع الأذى، فإنّه يكشف عن الكمون الأعظم للحنان في صدر المرأة الخالدة، امرأة

الدهور، كلّ الدهور، امرأة التضحية الأكبر، للقلب الذي لا يعرف، في صدر حافظة الذراري، أيّ خوف، ولا يأبه لأيّ خطر، ولا يتوانى عن أيّ فداء، في سبيل أن يتواصل الخيط السرمدي بين الحمل والإنجاب والتربية، وبين نكران الذات إلى حدّ تقبّل الموت كي يحيا الذين هم، في حقيقة نسغ المرأة، حقيقة كونها مصدر الخصب، ومصدر السهر عليه كي يحقّق ذاته في الصيرورة التي لا انقطاع لسلستها، إلّا بفناء البشريّة، نتيجة تدمير شامل، كما هو التدمير النووي، أو نتيجة انطفاء الشمس، وانعدام إمكانيّة الحياة على الأرض.

وتأتي إنقاذيّة المرأة الخاطئة للمرأة الهالكة، لتقدّم وجهًا آخر من القصّة الأزليّة، قصّة أنّ المرأة، مهما كان وضعها، ومهما بلغ سقوطها، تظلّ، في طهارة النفس، طهارة وجود، لا يبلغ أن يدنّس جوهره النقي، أنّ التربية، والوسط، والنظام الاجتماعي، يلقي، في حالة السوء، سوءًا عليه، وفي حالة الصحّة، رقيًّا يرتفع به إلى أعلى. . وسواء كانت الأرملة أمًّا أم لم تكن، وسواء كانت خاطئة أم لم تكن، فهي امرأة، ودورها في التضحية، وفي المساعفة، وفي الرحمة، يظلّ دورًا ماجدًا، وهذا ما أدركته الأمّ الضائعة، ومن أجله قبّلت يدها، ورفعت غطاء رأسها ووضعته على رأس التي أنقذتها، وفي هذا الصنيع دلالة على الستر الذي تريده المرأة للمرأة، مقابل الكشف الانتهاكي له، الذي يرتكبه الرجل، بخساسته الذكوريّة، خاصّة في مجتمعاتنا.

تضيف الأمّ، وهي تحدّث أولادها: «رأتني من بعيد، ونادت فسمعتها، سمعتها بأذني، كانت خارجة لتبحث عن بقرتها فرأتني، ونادت باسمي.. لم أصدّق أذني! التفتُّ فرأيتها، لم أعرف من هي أوّل الأمر، وخُيّل إليّ أنّني في حلم، وأنّ كابوسًا يجثم على صدري، ولكنّ اسمي عاد يتردّد في أذني، ويدًا قويّة لطمتني على خدّي لأعود إلى الوعي، ثم انفكّت قبضتي عن جذع شجرة التوت، ففتحت عينيّ، وتنهّدت وسالت دموعي، قالت لي الأرملة: «آه يا مسكينة! ماذا تفعلين هنا؟ أين تذهبين؟» غمغمت: «الأولاد! الأولاد يموتون جوعًا في البيت». كنتم أنتم فقط في خاطري، كنتم كلّ همّي وأملي، وكانت محنتي فيكم هي التي هدّت قواي أكثر من الجوع والمطر والوحل الذي غرزت فيه. نسيت كلّ شيء عداكم: نفسي وصحّتي وحياتي، وحين تاه عقلي من شدّة الضعف ظلّ محتفظًا بكم، ولمّا استعدت وعيي تلفّظت باسمكم، وسألتني الأرملة ملهوفة: «ما بالهم؟ أين هم؟» أشرت إلى البيت، وبعدها غبت عن الوجود.

«الأرملة، قالت لي بعدئذ، إنّها حملتني على ظهرها، كانت قويّة فحملتني على ظهرها، ومضت، حافية، في الوحل، وتحت المطر، وفي مواجهة الريح.. أخذتني إلى بيتها. كان بيتها أبعد، ولكنّها أخذتني إليه. أدركت أنّها تستطيع إسعافي. أشعلت النار، وبدّلت ثيابي، وسقتني شيئًا ساخنًا، وندهت الجيران، ندهتهم ولكنّ أحدًا لم يجب. هل خلت البيوت

والحقول؟ لا أدري! كانوا قد نزحوا، والذين بقوا لاذوا بالزوايا، جوعًا، أو ضعفًا، أو خوفًا من العاصفة، والأرملة وحدها خرجت تحت المطر، وخوّضت في الطين، ونقلتكم إليّ، إلى بيتها، وأطعمتنا، وأنقذتنا من الموت».

يأخذ جورج طرابيشي، في كتابه «الرجولة وإيديولوجيّة الرجولة» على الأمّ كيف تصادق الأرملة، أو كيف تقف موقف مودّة من زنّوبة، وهما على علاقة بالأب. يقول: «إنّ سلبيّة الأمّ هذه، أي ارتضاءها بحجّة أنّها أمّ بما لا يمكن أن تقبل به أيّة زوجة، قد أسهمت إلى حدّ كبير في تحديد مستويين للعقدة الأوديبيّة عند الابن: مستوى أوّل إيجابيًّا، وسافرًا لا يخفي نفسه، ومستوى ثانيًا سلبيًّا يختفي خلف الأوّل ولا يعلن عن نفسه إلّا مواربة ولا شعوريًّا». المستوى الإيجابي يسمّيه، حسب التحليل النفسي، بالمشهد الابتدائي، وهو يسهب في الكلام على هذا المشهد، ويؤوّله تأويلاً فرويديًّا يصل به حدّ «أنّ هذه العدائيّة المضمرة نحو الأمّ، المسقطة على زنّوبة بالوكالة، إن صحّ التعبير، لتقوم بحدّ ذاتها دليلاً أو قرينة على تحوّل في اتّجاه عقدة أوديب من الإيجابيّة إلى السلبيّة».

وفي التأكيد على هذه الفرضيّة، التي تظلّ موضع نقاش واختلاف في الروايتين: «بقايا صور ـ المستنقع»، يضيف جورج طرابيشي قائلاً: «الواقع أنّه بالرّغم من أنّ كلّ الخطاب الشعوري، والقصدي ـ في الروايتين ـ ينطق بحبّ الأمّ

وبالإشادة بملحمة تصدّيها «بيديها العزلاوين» لوحوش البؤس والخوف والأذى التي «تتخطّف أولادها المحتمين بها في القارب الذي تخلّعت أخشابه وتخرّق قاعه وصار شلوًا يتقاذفه البحر الهائج» فإنّ شذرات أو نتفًا من خطاب آخر، مضادّ، لا شعوري ولا قصدي، تنطق أيضًا بالعدائيّة المضمرة نحو هذه الأمّ عينها، المحبوبة في وداعتها، والمكروهة في وداعتها في آن معًا».

إنّ وداعة الأمّ، ذات المفاداة، والإيغال فيها إلى درجة التضحية القصديّة في الموقفين المشار إليهما سابقًا، من المحال أن تصبح وداعة مكروهة، حتى ولو أطلق الولد على أمّه، وهو يرى بؤسها وخوفها، كلمات مثل «مهيضة الجناح» «مغلوبة على أمرها» أو «نعجة» في خوفها من ذئاب الفقر التي لا تعكّر عليها الماء وحدها، بل تتجاوز ذلك إلى تعكير الماء على أولادها، أي تهديدهم بالافتراس، الأمر الذي يستنفر فيها كلّ ضراوة المقاومة حتى النفس الأخير.

وربّما صحّ ما ذهبت إليه مارت روبير، في كتابها «رواية الأصول وأصول الرواية ـ الرواية والتحليل النفسي» من أنّ الطفل، في مرحلة الوعي البدئي، يلمح أنّ أباه وأمّه ليسا كذلك الأبوين الوحيدين في هذا العالم، لكنّ الطفل، في «بقايا صور ـ المستنقع» كان يرى أمّه الأمّ الوحيدة، الأمّ القدّيسة، الشهيدة، الخالدة في هذا العالم، وهو لا يرى إمكانيّة موتها،

ويبلغ به الخوف حدّ الذعر إذ يتصوّرها ميّتة أو عرضة للموت، وكأنّ ما يسمّيه جورج طرابيشي «حصر الموت» القابع في الطبقات العميقة من اللاشعور، شهادة لصالح استحالة انقلاب الموقف من حبّ وداعة الأمّ إلى كرهه. فهو، أي الطفل، يؤثر هذه الأمّ على كلّ كائنات الوجود، وفي الهاجس الذي كان يلمّ به عن إمكانيّة موتها يقول: «لشدّ ما عذّبني صمتها، ممدّدة، معروقة، شاخصة، سادرة، قريبة، بعيدة، مقيمة، راحلة.. كانت أمّي! كانت شيئًا أثمن من الأمّ، لا بسبب الوجود وحده، بل بسبب البقاء أيضًا. وما كنت أدرك وجودي أو بقائي منفصلاً. إنّها في الخوف الراعف في الصدر، المتولّد عن ألف سبب مبرّر، كانت الطمأنينة النافية للخوف، حتى في ذلك الوضع المشلول للجسد الممدّد أمامي، ولقد داخلني، قبل أن أعرف معنى الموت، ذلك الهاجس الذي سيستمر طويلاً، هاجس الخوف عليها من الموت، كنت أنوي، لو حدث وماتت، أن أتعلّق بها وأرفض السماح لأحد أن يأخذها إلى حيث يأخذون الأموات. ولعلّ مرضها وما تركه من قلق في نفسي، دفعاني إلى تفكير مبكر بالمصير الذي ينتهي إليه الذين يموتون.. ونبت رجاء طفولي في صدري ألّا تموت أمّي، وألّا تُدفن لو ماتت، وأن أبقى إلى جانبها في كلّ الأحوال».

في رأي سان مارك جيراردان: «الرواية تقول ما تتمنّاه وتحلم به.. وأنّ العصور القديمة لم يكن لها رواية لأنّ المرأة كانت عبدة فيها.. وأنّ الرواية تاريخ النساء..» وهذا

التخصيص الأنثوي يجعل من المرأة الجاهلة، العبدة بجهلها، في أحد جوانب عبوديّتها، يجعل منها ركنًا أساسيًّا في الرواية، التي دونها لا تكون رواية، ما دامت هذه، حسب رأي جيراردان «تاريخ النساء». وتأسيسًا على هذا، فإنّ الأمّ في «بقايا صور ـ المستنقع» هي البطلة الرئيسيّة لا الأب، وتعلّق الابن بها مصدره تضحيتها، بينما كرهه للأب مصدره إخفاقه في أن يكون أبًا حاميًا، ومعيلاً ومفاديًا في سبيل الأسرة.

ومع أخذ وجهة نظر جورج طرابيشي، المعزّزة غالبًا بالشواهد من الروايتين، وعلم النفس التحليلي، فإنّ حكمه القطعي بأنّ عقدة أوديب هي التي تحكم مشاعر هذا الابن، وأنّ هذه المشاعر كما هي مشاعر مودّة للأمّ، فإنّها مشاعر كره للأمّ في الوقت نفسه، فيه استنتاج معمّم، لأنّه إذا صحّ أن تكون هذه المشاعر موجودة في وجهيها لدى ابن ما، في موقف مماثل، فإنّها ليست كذلك في «بقايا صور ـ المستنقع»، حيث الابن، كما تقدّمه الروايتان، يمنح الأب مودّة نابعة من الأعماق، مستمرّة مع استمرار حياة الأمّ، منسرحة عليها حتى وهي، في وهم الظنّ، ميتة.

وحين ماتت هذه الأمّ فعلاً، يكون موقف الابن، وهو في استواء الرجولة، لا الضياع، ولا الشعور بالإحباط لفقدان الحماية، ولا السقوط تحت وطأة عقدة الأمّ القباأوديبيّة، بل تفهم «أنّ ضرورة الموت، كضرورة الحياة، لولا أحدهما ما كان

الآخر»، وهو يهتف «وداعًا لما فات، وأهلاً بما هو آت». ويصعد ألمه الخاصّ إلى مرتبة الألم العامّ، حين يقول: «ماتت أمّي، وتلك حقيقة، ولكن حقيقة أخرى يجب أن تُذكر: كلّ أمّ، كلّ أخت، كلّ بنت في هذا الوطن، هي أمّنا وأختنا وبنتنا جميعًا، ومن أجلهنّ، ومن أجل أنفسنا، يجب أن نتابع طريق المستقبل».

إنّ عقدة أوديب، وعقدة الأمّ القباأوديبيّة، التي يفترض جورج طرابيشي، استنادًا إلى فرويد، أنّهما في أعماق الشعور من نفس الابن، وأنّهما ستظلّان تستعلنان في سلوكيّاته، ينفيهما موقفه الواضح غداة الموت الفعلي لهذه الأمّ، وفي هذا النفي لا إبطال للتعميم الذي هو آفة الفرويديّة فحسب، بل دحض كامل له.

الأمّ المفادية هي الأمّ الواقعيّة، الفعليّة، وفي كلّ الأمّهات منها قبس مشعّ، يعرفه كلّ طفل، ويستشعره في سريرته، حتى ولو أنكره، في أقواله، أو أفعاله، أو في ما يعبّر عنهما من إبداع، إلى أيّ جنس أدبي أو فنّي انتمى.

شيءٌ من الذكرى!

خرجت الأمّ من البيت وهي تقول لطفلها الباكي:

ـ عليّ أنْ أذهب يا صغيري. فاتني الوقت، وسينزلون غضبهم عليّ..

ومضت في الشارع وهي تتلفّت إلى وراء. كان طفلها يركض وراءها باكيًا، ويناديها أن تعود إليه، وكانت قد عادت للمرّة الثانية، وأخذت طفلها بين ذراعيها وقبّلته، ومسحت دموعه، ووعدته بالحلوى حين تعود في المساء.

ولم يقتنع الطفل. كان في الخامسة من عمره، وقد رغب أن يكون إلى جانبها، كما الأطفال إلى جانب أمّهاتهم، لأنّه ملّ النهارات الباردة، الطويلة، بانتظار عودتها، وهو يدور في البيت الفارغ، العاري الجدران، فيلعب حينًا، وينام حينًا، ويخرج إلى الحيّ، فيتسكّع بين البيوت، ويخالط لِداته بحذر، لفقره وهزاله

وغياب أمّه التي تعمل خادمًا، أمّه التي تقول له: «سأعود اليوم باكرًا يا بنيّ» ويجلس على الحصير مساء ينتظرها، ويطول انتظاره، فيذبل جفناه، ويلتوي رأسه الصغير على كتفه، وينام في موضعه، فتحمله إحدى شقيقاته إلى الفراش، حيث يستيقظ ملهوفًا إلى أمّه في الصباح، لكنّها، واأسفاه، تكون قد خرجت إلى عملها، أو هي تهمّ بذلك، فيتعلّق بها، ويرجوها، ويبكي لأجلها، وتبكي لأجله، ولكنّها تدعه، رغم ذلك، وتمضي، مكرّرة وعدها بالعودة باكرًا، دون أن يدعها أسيادها تفي به في يوم من الأيّام.

وكانت الأمّ قد تأخّرت كثيرًا هذا الصباح، وكان الطفل لا مباليًا بتأخّرها، عنيدًا في ملاحقتها، والبكاء عليها، ومناداتها ألّا تدعه وأن تأخذه معها. وعجزت الأمّ عن إقناعه، وعن إرجاعه، فأمسكت به، وصفقته على خدّيه في الشارع، وغادرته ومضت، فنهض وركض وراءها، وراح يصرخ، وراحت تسرع كيلا تسمع صراخه، ثم لم تستطع أن تفلت منه، فعادت إليه وضربته بألم، بقسوة، بنقمة على وجوده ووجودها، ثم أخذته بين ذراعيها، وجلست على الرصيف، وطفقا يبكيان معًا، وعادا إلى البيت معًا، وحين أفاق لم يجدها، ولكنّه لم يبك لأجلها، فقط كان حزينًا، وخجلاً بغير حلّ.

* * *

وكبر الطفل قليلاً . . صار صبيًّا . وفي المدرسة لم يقل عن أمّه شيئًا، ولكن أمّه خدمت الناس لتشتري له ما يحتاج، وكان ما يحتاجه كثيرًا، وقد رضي بالقليل، لأنّه صار يفهم . . وأخيرًا جاء العيد، وكان الأطفال قد لبسوا جزمات المطّاط في الشتاء، ورغب الطفل بواحدة، بجزمة سوداء، يدوس بها في الماء فلا تبتلّ قدماه، ويخوض في الوحل فلا يبقى أثر عليها إذا غسلها، وفي سبيل هذه الجزمة توسّل إلى أمّه، وتضرّع إلى الله، وتلطّف مع أخواته، وبعد ظهر أحد الأيّام وجد نفسه في السوق مع والدته لشراء الجزمة الموعودة .

كان ما تملكه الوالدة ٦٥ قرشًا، وثمن الجزمة ليرة ونيّف، وكانت أمّه تقول للبائع : «أنا أعمل خادمًا، وهذا وحيدي، ولم يلبس عمره كلّه جزمة كاوتشوك، ولا أملك إلّا هذا المبلغ . . » فيهزّ البائع رأسه ساخرًا أو آسفًا، وينصحها أن تشتري لابنها صندلاً . وتخرج الأمّ وخلفها الطفل، ومن دكّان إلى دكّان، تتكرّر كلمات الأمّ نفسها، وتوسّلاتها نفسها، وأجوبة البائعين ونصائحهم نفسها، وفي عيني الصبي نظرة رجاء، وفي عيني الأمّ نظرة إشفاق، والليل يهبط، والأمل في شراء الجزمة يتضاءل، ثم يستقبل البيت، على ضوء فانوس واهن في الزاوية، وجهين يرتسم عليهما الإخفاق والخيبة . وتقصّ الأمّ، تلك الليلة، على أولادها قصّة الفقراء الذين لهم الجنّة، وينام الصبي مقهورًا، لا تغريه القصّة ولا الجنّة، ولا يرغب في تذكّر حال والدته التي

ظلّت، طوال ساعات، تتسوّل له، بقروشها الناحلة، الجزمة التي لم يحصل عليها أبدًا.

❊ ❊ ❊

ويكبر الصبي ويصير رجلاً، يدخل معترك الحياة ويدفع ضريبتها، ولأجل أن يسعد جميع الأطفال بجميع الأمّهات، ويجد الصبيان الدفاتر والأقلام والجزمات، يعمل لأن تكون الحياة أفضل، فيطارد من أجل ذلك ويتشرّد، ويُحرم من رؤية أمّه عشرة أعوام، وتظلّ أمّه تنتظره عشرة أعوام، وفي ليلة عودته، وقبل أن تعانقه تفي بنذرها.

لقد نذرت أن تزحف على يديها وركبتيها من البيت إلى مكان وقوف السيّارة التي أقلّته. وصادف أن كان يوم وصوله ممطرًا، ورغم ذلك دبّت في الظلمة، هي التي في السبعين، كطفل رضيع، وتبلّلت بالمطر، وتلوّثت بالماء والطين، حتى بلغت السيّارة وقبّلت عجلاتها وجوانبها، ثم نهضت لتعانق ابنها الغائب، ذاك الذي كانت تغنّي في غيبته:

أكتب المكاتيب والأيّام تمحيها

وأنا ناطرة الدروب ومالي من يودّيها

❊ ❊ ❊

هذه الأمّ هي أمّي، وهذا الابن هو أنا.. وأنا مطرق أبكي

ولا أبكي، وأرى ولا أرى، فقد همدت التي كانت تسعى، وصمتت التي كانت تغنّي، ولم يبق منها، في النعش الممدّدة فيه، سوى جثمان نائم، فالموت نوم ثم لا شيء.

وجه أصفر، وعينان مطبقتان، ويدان معروقتان، متصالبتان على الصدر، وشمعتان تشتعلان، تذوبان، وشيء في الصدر يذوب، ونهر من الأسى يتفجّر.. من يمنع نهر الأسى أن يتفجّر؟

قبّلت يديها. يا إلٰهي! كم كانتا باردتين يداها. ونظرت إليها. من أنت؟ الموتى لا يسألون، ولكنّها سألت.. خُيّل إليّ أنّها سألت، وأنّها ابتسمت، وأنّ يدها امتدّت إلى رأسي، وأنّها عرفتني. محالٌ أن تكون نسيتني.. يا أمّ! يا أمّي! وصرخت بأعلى صوتي: يا أمّي! وتراقصت ذبالة الشمعة، ولكن أمّي لم تجب. الأموات لا يجيبون. أحبابنا لا يجيبون، وقر في آذانهم تقولون؟ حاشا! في أذن الموت وحده.

وقلت لها: وداعًا! وأُغلق التابوت وكان هذا آخر العهد..

تحسبونني حزينًا لأنّها ماتت؟ ربّما، ولكنّ حزني ليس على النحو الذي تقدّرون، فأنا أعلم أنّ ضرورة الموت، كضرورة الحياة، مباركة، لولا أحدهما ما كان الآخر.

وتحسبونني أتحدّث عنها لأنّها أمّي؟ ربّما، ولكنّني، من خلالها، أتحدّث عن جميع الأمّهات، فما فعلته لأجلي قد فعلته

كلّ أمّ، لأجل كلّ ابن، وكلامي، إذن، يحمل معنى الذكرى ومعنى العبرة.

لقد أعطتني الحياة، وكانت حياة شقيّة، جاهدت، على طريقتها، لأن تجعلها رخيّة، ولكنّ المجتمع أراد غير ما أرادت، فكان هو الأقوى، وكنّا الأضعف، وكان صراع.. وما زال الصراع، ولكنّ النصر لنا، وطريق الكفاح طويل، والبشريّة تسير.

طفولتها كانت أشقى من طفولتي، وطفولتي أشقى من طفولة أبنائي، ومن الأيّام السود إلى الأيّام البيض، يحمل بعضنا بعضًا، ونناضل معًا في سبيل قومنا، ونتعلّم محبّة كلّ يوم أقوى، وكلّ يوم أفضل، كما يقول ناظم حكمت.

مجتمعها كان مجتمع سادة، وكنّا، نحن الفقراء، عبيدًا أو كالعبيد، ولكنّ العبيد، أخيرًا، نهضوا. قطعوا الكثير من أغلالهم، وبقي منها الكثير. فقبل الجلاء ما كان ممكنًا التقدّم، وبدون أن نتحرّر خارجيًّا، ونتخلّص من تركة التخلّف داخليًّا، لن يتطوّر ولن يترسّخ هذا التقدّم الذي به وحده يُقاس الفارق بين حياة أهلنا وحياتنا، بين طفولتنا وطفولة أبنائنا.

ماتت أمّي، وتلك حقيقة، ولكن حقيقة أخرى يجب أن تُذكر. كلّ أمّ، كلّ أخت، كلّ بنت في هذا الوطن، هي أمّنا وأختنا وبنتنا جميعًا، ومن أجلهنّ، ومن أجل أنفسنا، يجب أن نتابع طريق المستقبل.

وقبّلت يديها الباردتين؟ أنا لم أقبّل عظمًا ولحمًا ميّتين، بل جهدًا بُذِل، ودمعًا سُكب، وتضحية كانت.

غير أنّ الجهد والدمع والتضحية، حين تخرج من الخاصّ إلى العامّ، تصبح أدعى إلى التكرمة.

يا أبنائي! إذا متّ يومًا، ولم تكن يداي المتمدّدتان إلى جانبي، قد عملتا ما أدعو للعمل لأجله، فلا تقبّلوهما ولا تكرّموهما. . تكونان غير مستحقّتين، وتكونون أنتم مرائين.

وداعًا لما فات، وأهلاً بما هو آت.

«الياطر».. وجنون القرّاء بها!

لقد مضت سنوات ولم أذهب إلى اللاذقيّة، مع أنّ فيها «أمّي الصغيرة قدْسيّة مينه» التي لها عليّ أفضال لا تُنسى، وقد أهديتها إحدى رواياتي، عرفانًا بالجميل، وكتبت، عن زكريّا المرسنلي، وشكيبة، الراعية التركمانيّة، إحدى أحبّ الروايات، وهي «الياطر»، أي مرساة المركب، التي جُنّ بها الناس، وطُبعت حتى الآن عشرين طبعة ونيّفًا، وغطّت على روايتي «الشراع والعاصفة»، مع أنّها، أي «الياطر»، هي الجزء الأوّل، الذي ينتظر القرّاء الثاني منذ أربعين عامًا، دون جدوى، ودون أن أقبل، من إحدى الأميرات، «شيكًا» مفتوحًا على بياض، مقابل كتابة الجزء الثاني، الذي وعدت بكتابته القرّاء وأخلفت بوعدي، لأنّني مزاجيٌّ إلى حدِّ اللعنة، ومجنون في الحياة كما في الكتابة!

قلت إنّني، في الصيف، أهرب من دمشق، وكان هروبي،

منذ سنوات، إلى فندق «سفير معلولا» الذي عشت فيه أيّامًا سعيدة، هادئة، هانئة، إلى أن اكتشف الأحبّاء مكان وجودي، ولاحقني الصحافيّون، من دمشق وبيروت ومصر، ملاحقة ملحاحًا. وجاءني وفد كريم من مشتى الحلو، واتّصل بي الأصدقاء في الصقيلبيّة، وفي مطعم «الخيمة» حيث أمّ إلياس و«الكبّة النيّة» من يدها لا أشهى ولا أطيب، وحيث أبناؤها الشباب من أعزّ قرّائي، ومطعمهم مقصد الناس، من سورية والبلاد العربيّة وحتى الأجنبيّة اكتشفوني أيضًا، فلم أجد بدًّا من الهرب، ثانية، إلى مكان لا يعرفني فيه أحد، فاخترت نادي الرماية في السويداء، الذي أعرفه منذ سنوات طوالٍ، وأعرف الصديقة العزيزة سناء، معرفة حميمة، وهي التي تُدير النادي إدارة ناجحة، وعلى كتفيها كلّ المسؤوليّات، من صغيرها إلى كبيرها أيضًا!

كانت هذه، تمامًا، المرّة الرابعة التي أقصد فيها نادي الرماية في السويداء، خلال الصيف الماضي، وكانت الغرفة رقم ٥ هي غرفتي المفضّلة، وفيها وضعت حقيبتي بانتظار أن تفتحها سناء، كما هي العادة، وتوضّب ما فيها، بعناية تامّة، في الخزانة، ذات الباب الواحد، بعد أن تفرز، بدقّة، هذا القميص، أو هذه الجاكيت، أو تلك الكنزة قائلة:

ـ هذه كلّها للتنظيف والكيّ، حتى تصبح لائقة بك، أنت الكاتب المشهور، الذي لا أعرف، كما قلت مرارًا، ماذا

يكتب، وبماذا ينتفع بكتابته، وهل هو مشهور حقًّا، أم أنّ المسألة غباء القرّاء أمثالي!؟

قلت:

ـ المسألة، يا سناء، لها علاقة بالفهلويّة، وليس بغباء القرّاء، وأنت خصوصًا، لأنّني لا أغشّ في اللعب، وعندما يكون الورق قويًّا، أضرب ضربة الصولد، أي بكلّ الرصيد الذي أمامي.. فهمتِ؟

ـ لم أفهم!

ـ وهذا أفضل يا سناء العزيزة!

ـ لم أفهم تمامًا، لكنّني أسمع بلعبة البوكر، وأراها في الأفلام المصريّة.. هذا لا بوكر ولا غيره.. أعراس، وطبول وزمور، ورقص، ودبكة، وهذا كلّ شيء.. لماذا تذهب وتأتي كثيرًا هذه الأيّام!؟

ـ لأجلك يا سناء!

نظرت إليّ سناء باسمة وقالت:

ـ أعرف أنّك تضحك عليّ، ولكن، صدّقني، أحبّ هذا النوع من الضحك، ثم من يدري!؟ تمهّل حتى أضع هذه الثياب في غرفة الغسيل، وأجلب لك القهوة التي أحضّرها بنفسي.. وبعد ذلك نتكلّم على رواق، وبصراحة كما عوّدتني.

جاءت، بعد قليل، بركوة القهوة، وفنجانين، وثلاث كؤوس، ودخل النادل وراءها حاملاً طاولة عليها غطاء مزهّر، نظيف ومكوي، وهي الطاولة نفسها التي أرتاح بالكتابة عليها، بينما أنا منصرف إلى مزْج شراب التفّاح الذي تؤْثره، بقليل من الثلج، في قدحين مخصّصين لمثل هذا الشراب.. وبعد النخبين المتبادلين سألتني:

ـ خير إن شاء الله.. ما سبب هذه العودة غير المتوقّعة؟

قلت، وأنا أختبئ وراء إصبعي، لأنّي من وطن عربي، بإمكان أيّ عنصر مباحث فيه أن يدخلني السجن، فلا أخرج منه إلّا حين تتذكّرني الآلهة! وكي أمازح مضيفتي قلت:

ـ الشوق يا سناء!

ـ وبعده؟

ـ الوداع! ألا تقرئين جريدة «سوء المصير»؟ نعم! إذًا قرأت مقالي «خذوني إلى السجن.. أرجوكم!» وفي هذا المقال أكّدت أن الوطن العربي الكبير سجن كبير، وأنا أفضّل السجن الصغير في بلدي، ما رأيك؟

ـ رأيي أنّ مقالك ملغوم.. اسألني لماذا؟ لأنّهم، إذا كنت مشهورًا كما أسمع عنك، وحتى منك أيضًا، لا يتجاسرون على أخذك للسجن.. وعلى كلّ حال، ومن باب الاحتياط، هربك إلى هنا كان في محلّه، فأنا، بالنسبة إليك، الحارسة والسجّانة،

وماذا تريد أكثر!؟ أنا، يا عزيزي الكاتب المشهور، آنسة لا أزال، وهذا من سوء الحظّ، لكنّني من نَسْل النشامى، ودمهم يجري في عروقي، فلا تخف، وسلفًا أقول لك أنت غير خائف، أنت هارب من بلاوي الناس، وأذكر أنّك قلت لي، في الزيارة السابقة: أنا في جهنّم يا سناء، الشهرة جهنّم يا عزيزتي.. أم إنّك كنت تكذب!؟ لا! أنت لا تكذب، لأنّ الكذب رأس المعاصي كما قلت لي.. أنت، ببساطة، تريد الراحة دون أن تدفع الثمن، وهذا مُحال.. شراب التفّاح هذا جيّد، من أيّ معصرة اشتريته؟

ـ من معصرة الوهم!

ـ وهذه هي الحقيقة، يا صديقي الهارب من جهنّم إلى جهنّم، دون أن يدري!

وحدة الثقافة واستعادة الدور التنويري النهضوي

أن تقول الحرف، فذلك هو الأداة التي بها نزهو ونفاخر، وكالألق الفضّي، نضيء الذرا الشمّ واعية، لأنّنا منذ مطلع هذا القرن، كنّا في الأوائل ممّن أطلقوا النداء، دعوة إلى العدالة الاجتماعيّة، ولا نزال نواصل السير، والحداء في سمع الأفق، موعد لنا عند الأفق، ثم لا يهمّ عنت السير، ومشاقّ الطريق، واشتعال الشموع قرابين، هي بعض شهدائنا، لأنّنا، في كلّ هذا كنّا الأوفياء للذين، في فجر المسيرة، نذروا أنفسهم، وأقسموا، ثم وفوا بالقسم، على أن يكونوا الشهداء الأحياء. وقد كانوا، ومنهم تعلّم شعبنا العربي، كيف تكون المفاداة، وكيف يكون غلاب اليأس انتصارًا للأمل، شروقًا، هو الفجر، هو الصبح، هو الضحى والنهار، وفي توهّجه الأرجواني، لون دمنا، وصباغ قمصاننا، التي ارتديناها، مرّة وإلى الأبد، لا ولعًا باللون، بل

تميّزًا به عن سوانا، ممّن أقعدهم التعب، والتوى بهم وَهَنُ العصب، أو رهق الإرادة.

أعرف، مثلكم جميعًا، أنّ للكلمة دورها، وأنّ صياغتها لوجدان المناضل، هي الأكرم، والأعمق، في الصياغات، لكنّني أعرف، مثلكم جميعًا أيضًا، أنّ السياسة هي في القيادة، وأنّها تُستعلن، كنسيج فكري، في كلّ أنواع النشاط الإبداعي، بدلالة الحدث، والرؤية والإيماء فيكون الخطاب السياسي، وفقًا لهذا النسيج، خطابًا مضمرًا، موحيًا، متحوّلاً شكلاً ومضمونًا، يسلك إلى غايته وجهة أخرى، فنِّيَّة، متنامية، عبر مضمون إبداعي، يصدر عن الذات الإبداعيّة، ويتّخذ له الشكل الملائم، في الطرح الملائم. وهذا هو الفعل الذي، في حدّ الحدّ، تنهض به الثقافة، ويتوسّله المثقّفون طرحًا صحيحًا، ويدعون، بعد ذلك، للسياسيّين والمناضلين والمصلحين الاجتماعيّين، بما هم نشدة تحرّر وتقدّم، أن يفيدوا من هذا المهاد الذي هيّأته لهم الإبداعات الثقافيّة، في بنيتها الفكريّة التي تتقدّم لتكون عامل مدّ بعد جزر، وطليعة زحف بعد تقهقر، ونداء ثورة صاغت الكلمة واللوحة واللحن والنغم وكلّ الإبداعات الأخرى، وشكّلت أفكار الذين يلبّون نداءها وعلى هديها يثورون ويغيّرون، جذريًّا، ما هو كائن، بما يجب أن يكون.

إنّ الصلة، بين الثقافة والسياسة، هذا مداها ومبتغاها، وقد

أدّت الثقافة العربيّة، ككلّ الثقافات الأخرى، دورها هذا بامتياز، فعندما كانت الاحتلالات، عثمانيّة أوّلاً، وإنكليزيّة وفرنسيّة وإيطاليّة ثانيًا، تسعى لوأد الشعور العربي القومي، صانت الثقافة العربيّة هذا الشعور وطوّرته، وحفظت الهويّة العربيّة وبلورتها، وبعثت الوعي ونمّته، فكانت الاستقلالات العربيّة بعد الجلاء، وترافق النهوض التنويري مع النهوض الوطني البرجوازي، وأعلامه معروفة منّا جميعًا، إلّا أنّ البورجوازيّة الوطنيّة العربيّة، التي ظلّت تابعة للمركز الرأسمالي العالمي اقتصاديًّا، لم تستطع إكمال مشروعها، ولم يستطع، تاليًا، النهضويّون التنويريّون إكمال مشروعهم، وعلينا الآن كمثقّفين أن نستعيد، لا أن نُعيد، المشروع التنويري العربي، حتى في المناخ غير المؤاتي الذي يسود الوطن العربي راهنًا. فالثقافة العربيّة أكّدت، من خلال التبادل والتفاعل، حضورها الوطني والقومي، وكذلك حضورها الوحدوي، رغم أنّ البلدان العربيّة كانت، نتيجة التجزئة، جزرًا متباعدة، متنافرة، متمزّقة، منذ منتصف السبعينيّات حتى وقتنا هذا، وربّما إلى ما يليه من أعوام صعاب وعجاف، تتراءى في المدى المنظور، المدى الذي ينبغي أن يشدّ من عزائمنا، لا أن يوهنها بدافعَي الإحباط واليأس.

ما أريد أن أخلص إليه، في هذه المقالة الموجزة، هو أنّ الفكرة، لا السياسة، في المقدّمة الآن، ولسنوات مقبلة، دون أن يلغي هذا التمايز في التراتب، مقولة إنّ السياسة هي في

القيادة، ذلك أنّ الخطاب السياسي، راهنًا، يستمدّ مقوّماته، من الخطاب الفكري، ثم يعطي للفكر، في التفاعل المتبادل، أن يمهّد للسياسة، وأن يساعفها في وقت الجزر، أو تقصير زمنه، كما يساعفها، عندما يأتي أوان المدّ، أن تكون مهيّأة له، وأن تنهض به نحو غايته في تحقيق ما نبتغيه من دفع حركة التحرّر والتقدّم دفعًا قويًّا، نرتفع به فوق وهدة الانحدار التي صرنا إليها.

يبقى السؤال: عن أيّ فكرة نتحدّث؟ وعن أيّ فاعليّة فكريّة نبحث؟ والجواب واضح: الفكر الذي نريده هو فكر المجتمع المدني، التنويري، النهضوي، العقلاني، العلماني، الذي يرسّخ المؤسّسات الدستوريّة، على أسس من الديموقراطيّة، مع كلّ ما يتفرّع عنها، ويزدهر بها، من حرِّيَّة القول والعمل، في حقلي الثقافة والسياسة معًا، وفي تعدّديّتهما أيضًا.

هذه هي مهمّة الثقافة العربيّة، في وقتنا الراهن، وإلى أعوام طوال، وبها تتجلّى ثقافتنا فكرًا، بعضه خلق وبعضه بحث، وكلاهما إبداع لثقافتنا، وبذلك يكون لثقافتنا شأنها، تأثّرًا وتأثيرًا، في كلّ مجالات النشر، واعتبارها، لدى الجميع المصدر والمرجع، في مجالات النضال الدؤوب، وصولاً إلى ما نريده من وثوب على أذى التمزّق، والتقهقر واليأس والتيئيس، والانتقال منه إلى وحدة الصفّ العربي، على قاعدة الحوار المفتوح، مع كلّ الاتّجاهات الفكريّة والسياسيّة، وبينها

أيضًا، تظلّ سبيلنا الوحيد إلى استعادة القدرة على المبادرة، والانتقال إلى الفعل، بعد أن ارتهنّا طويلاً لردّ الفعل الذي هو العجز، في كافّة أشكاله.

إنّ الوحدة العربيّة، هذا الهدف الأكثر نبلاً وتطلّبًا، مسحوب على المستقبل، ففي مطلّه، مهما يكن قصيًّا، ينبثق فجر أمّتنا العربيّة، بعد ليل طويل من التمزّق، والتباعد، والتنافر أحيانًا. وتأتي الثقافة التنويريّة، النهضويّة الوحدويّة، تمهيدًا للوحدة السياسيّة والاقتصاديّة المرجوّة. ودون هذا التمهيد، لتقصير أمد الجزر، والتسريع بالمدّ الآتي، لن نبلغ أن نحقّق هذا الحلم الأكثر ثوريّة وضرورة وحقيقة موضوعيّة، بين كلّ أحلامنا من مطلع القرن العشرين، ففي الوحدة العربيّة يستعيد الوطن قوّته ومجده.

والتعويل على الثقافة العربيّة، للقيام بالدور التمهيدي لهذه الوحدة، في محلّه تمامًا، فقد ظلّت الوحدة الثقافيّة العربيّة قائمة، رغم كلّ الاختلافات والتمزّقات بين دول الوطن العربي. وهذا واقع يعطي برهانه من خلال التبادلات الثقافيّة، واللقاءات في الندوات والمهرجانات والمؤتمرات ذات الاستمراريّة، ومن خلال التواصل الدائم بين المثقّفين العرب، من أدباء وفنّانين ومنتجين للثقافة، في كلّ فروعها، وكلّ أجناسها، وكلّ أشكالها الإبداعيّة.

لقد عرف الوطن العربي التجزّؤ الجغرافي، والسياسي، والاقتصادي، وحتى الديمغرافي والبيئي، لكنّه لم يعرف ما يُقال عنه «تجزّؤ ثقافي»، وكلّ كلام على هذا التجزّؤ، قبل حرب الخليج في بداية التسعينيّات، وبعدها خصوصًا، هو زعم لا يرتكز على سند من واقع، وهو أيضًا ادّعاء ذو نزعة تجزيئيّة، افتراضيّة، تجانف الموضوعيّة، وهو حتى مع التساهل مع النيّة الحسنة، اجتهاد شخصي، فرادى، يأخذ به، ويطرحه، ويلوكه، من لا ينظرون إلى الساحة الثقافيّة العربيّة نظرة شاملة، متأنّية متفحّصة، مدقّقة، واعية، وعلى قدر ولو ضئيل من الصدقيّة.

إنّ وحدة الثقافة العربيّة ناجمة عن وحدة مشاعر عربيّة، ووقائع عربيّة، وأدلّة عربيّة. فالثقافة، التي هي حضارة بالتراكم الثقافي، ولا يفترض فيها، كي تكون وطنيّة قوميّة، إنسانيّة، أن تُنتج في بيئة واحدة، وزمن واحد، ومكان واحد، ولو حدث ذلك لكان خطأ بيّنًا، يلغي البيئة في الإنتاج الأدبي والفنّي، ويعزل المحلِّيَّة التي هي طريق هذا الأدب والفنّ إلى العالميّة. فما ينتج في بيئة مصريّة، أو سوريّة، أو لبنانيّة، وغيرها أيضًا، هو نتاج إبداعي عربي بالمحصّلة، وهذا يلاحظ، ويتأكّد في الإبداع الأوروبي، والأميركي والقارّي. وإذا أخذنا فرنسا مثلاً، نجد أنّ هناك أدبًا وفنًّا لهما بيئة فرنسيّة جنوبيّة، وشماليّة، ووسطيّة، وباريسيّة، إلّا أنّ هذا الأدب والفنّ، يبقى في النتيجة أدبًا وفنًّا فرنسيّين خالصين، وما نقوله عن فرنسا ينطبق على

بريطانيا وأميركا، وكندا وغيرها، كما ينطبق على أدب وفنّ أميركا الجنوبيّة، ذات البلدان المتعدّدة، والبيئات المتعدّدة. فالبيئة التشيليّة أعطت العالم الإبداعي بابلو نيرودا، والبيئة الكولومبيّة أعطت العالم الإبداعي مركيز، والبيئة الإسبانيّة أعطت لوركا. والتعداد، هنا، بغير حدود، وغير قياس، لأنّه يشمل القارّات كلّها، دون استثناء.

الكتابة والحرِّيَّة

ترتبط الكتابة بالحرِّيَّة ارتباطًا عضويًّا، فعندما لا تكون حرِّيَّة لا تكون كتابة. لكنّ الكتابة في جميع العصور وفي أشدّها قمعًا تجد حرِّيَّتها المنشودة بأشكال كثيرة غير مباشرة، وتقول قولها عن طريق الرمز، الأسطورة، الإسقاط، التورية، الإيهام، أو على لسان الحيوان كما عند عبد الله بن المقفّع في تاريخنا الأدبي العربي القديم، أو في شكل ملتبس كما فعل الحطيئة عندما منعه الخليفة عمر بن الخطّاب من الهجاء، فقال هذا البيت من الشعر حسبما تسعف الذاكرة:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها

واقعد فإنّك أنت الطاعم الكاسي

ولم يستطع بعض نقّاد زمانه أو بعض شرّاح شعره الوصول إلى قناعة يقينيّة في ما إذا كان الحطيئة يمدح أو يهجو، وهكذا

وجد هذا الشاعر الهجّاء، طلبًا للرزق أو ردعًا للمنكرة، أن يفتح ثغرة في جدار المنع الخليفي ويوصل قوله إلى المعنيّ به أوّلاً، ثم إلى الرواة والرأي العامّ ثانيًا، دون أن يطاله العقاب. وفي وسعنا أن نجد أمثلة كثيرة مشابهة لهذا الاختراق للمنع في تاريخ الآداب العالميّة وفي أكثر الحقب دمويّة وبطشًا في هذا التاريخ.

إنّ سلطة الكتابة في تعارض دائم مع سلطة الحكم.. هذه تريد إبقاء ما هو قائم بكلّ ظلمه وبشاعته، والكتابة تسعى إلى إزالة ما هو قائم وصولاً إلى ما يجب أن يقوم. لهذا فإنّ دور الكتابة هو الاستئناف دائمًا وعدم الاستكانة، عدم الرضى، عدم الخضوع. والسلطة الحاكمة تتأذّى من هذا التمرّد عليها وهذا التحريك لسكونيّة استقرارها، فتلجأ إلى تقييد الحرِّيَّات وأوّلها حرِّيّة الكتابة، مصدر التحريض ضدّ الكائن الفاسد نشدانًا للتغيير وتسريعًا به، كي يحلّ ما ينبغي أن يكون محلّه، وهو الأفضل الذي ثمّة ما هو أفضل منه دائمًا، في صراع الأنظمة وتعاقبها منذ المشاعيّة البدائيّة، وبفعل التناقضات في قلب وحدة الأشياء التي يؤدّي تراكمها إلى تحوّل نوعي؛ فيكون الانفجار الثوري الذي يذهب بالقديم ويأتي بالجديد، وبعد ذلك يصبح التجديد متواصلاً إلى أن تنتفي التناقضات التناحريّة ويتمّ الانتقال من نظام اجتماعي إلى آخر، انتقالاً متوافقًا والسيرورة التاريخيّة، حيث تكون السلطة في المجتمع الاشتراكي على اتّساق نظري وعملي مع هذه السيرورة؛ وهذا ما يجري النقاش حوله في وقتنا

الحاضر، بعد أن تقوّض بناء نمط واحد من الاشتراكيّة في الاتّحاد السوفييتي سابقًا، وفُتح باب الحوار للتعرّف إلى الأخطاء التي أدّت إلى تقوّضه ومدى مطابقتها أو مفارقتها للنظريّة الماركسيّة اللينينيّة، بعيدًا عن غوغائيّة الشامتين وتنظيرات الحاقدين من مؤدلجي الرأسماليّة الذين يتنبّؤون بانتهاء التاريخ الاشتراكي وديمومة التاريخ الرأسمالي، كي يزرعوا أو يستنبتوا اليأس في نفوس المناضلين من أجل العدالة الاجتماعيّة، حلم البشريّة الأكثر ثوريّة، ويتوصّلوا، عن طريق المغالطات الفلسفيّة والعلميّة، إلى إقناعنا بأبديّة الرأسماليّة هذه التي تنفجر وستنفجر أكثر الأزمات في حضن نظامها الاقتصادي والسياسي، وهي إلى زوال مهما تطاولت مرحلة مكر التاريخ، لأنّه لو كان في وسع الرأسماليّة أن تحلّ مشاكل العالم لما كان الفكر الاشتراكي ولما كانت الثورة الاشتراكيّة العظمى: ثورة أكتوبر.

تأسيسًا على هذا كلّه، فإنّ الأدب المستأنف، الواعي لدوره الاستئنافي، لا بدّ له أن يكون على تعارض مع السلطة الحاكمة التي يستأنف ضدّها، ولا بدّ لهذه السلطة أن تقف بكلّ وسائلها القمعيّة ضدّ هذا الأدب، وتاليًا ضدّ هذه الكتابة فتحجب عنهما الحرِّيَّة. وفي حال كهذه، وهي حال شبه مستمرّة في المجتمع الطبقي، ينبغي على الكتابة أن تنتزع حرِّيَّتها وتحقّقها بوسائل شتّى، مع ملاحظة أنّ حالة منع الحرِّيَّة وقمع الكتابة قد كانت موجودة في المجتمع الاشتراكي على النمط السوفييتي. وقد كافح هذا الأدب ضدّ المنع والقمع كليهما وبكلّ مظاهرهما

ووسائلهما، وكان كفاحه أحد العوامل التي أدّت إلى الانهيار الكبير؛ وفي هذا عبرة لأيّما سلطة قامعة في أيّ بلد مقموع لو أنّ مثل هذه السلطة تفيد من العبر ودروس التاريخ وهذا محال غالبًا.

إنّ تجارب حياتي ككاتب لا تخلو من أذى السلطة في عهد الانتداب الفرنسي والعهد الوطني بعد الاستقلال وفترة الوحدة المصريّة السوريّة أيضًا. ففي العهد الفرنسي، وبسبب مقال نشرته في «صوت الشعب» اللبنانيّة ضدّ مظالم المنتدبين الفرنسيّين ومطاردتهم للوطنيّين السوريّين العرب، ضُربت من قبل رقيب في الدرك الفرنسي يُدعى «أبو حمدو» حتى قاربت الموت، ودخلت السجن عدّة مرّات. وفي العهد الوطني أعوام ٤٧ ـ ٤٨ ـ ٤٩ لوحقت وسُجنت عقابًا على كتاباتي الصحفيّة ضدّ الإقطاع عدّة مرّات أيضًا، مع التعذيب المعروف في مثل هذه الأحوال. وفي فترة الوحدة المصريّة ـ السوريّة اعتُبرتْ «رابطة الكتّاب العرب» التي كنت من مؤسّسيها خارجة على القانون، فسُجن أعضاؤها وتشتّتوا في المنافي. وبقيت في المنفى قرابة العشر سنوات قضيتها مشرّدًا بين أوروبا والصين. والمفارقة أنّني بكيت بعد هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ وكنت في المجر إثر سماعي خطاب عبد الناصر حول هذه الهزيمة وإعلان استقالته من السلطة، وعدت بعد ذلك مباشرة إلى وطني سورية ليلمّ بي الحزن والألم الشديدان عند إعلان موت عبد الناصر عام ١٩٧٠ مدركًا قبل ذلك، في سنوات الغربة المريرة، أنّه كان

هناك خطأ في الموقف من الوحدة وأنّني وسائر الكتّاب السوريّين والمصريّين الذين سُجنوا وعُذّبوا وماتوا وتشرّدوا دفعنا ثمن هذا الخطأ، وإن لم يشاركوا كتابة ضدّ هذه الوحدة بل أُخذوا بجريرة سواهم.

بعد ذلك، لم أُلاحق ولم أُسجن، ولم يُمنع أيّ من كتبي أو رواياتي من النشر والتداول أو من الدخول إلى سورية حين انتقلت إلى التعاون مع «دار الآداب» اللبنانيّة، قبل حوالى عشرين عامًا، فأعادت طبع جميع كتبي ورواياتي القديمة والجديدة والتي بلغ عددها حتى الآن سبعة كتب في النقد والدراسة، وثلاثين رواية. غير أنّ وزارة التربية السوريّة تكرّمت عليّ فسحبت اثنتين من رواياتي من مكتبات المدارس الإعداديّة والثانويّة هما «الثلج يأتي من النافذة» و«الياطر» وتلطّفت فحذفت مقتبسًا من إحدى رواياتي «الشراع والعاصفة» وقصّة قصيرة عن حرب تشرين عنوانها «الرجل الذي أبطل مفعول القنبلة» من كتاب الأدب العربي للشهادة الثانويّة (البكالوريا)، دون إبداء الأسباب، أو لسبب مزاجي احتفالي لا أعرفه، وكلّ ذلك حرصًا من هذه الوزارة على ألّا يطّلع طلّابها على كتبي. لكنّ النتيجة كانت عكس ما أرادت فقد أثبت هؤلاء الطلّاب أنّهم في مادّة المطالعة أكثر تقدّمًا من وزارتهم الموقّرة التي لا تطالع أصلاً. كما أنّ الرقابة على الكتب، في هذا القطر العربي أو ذاك، تمنع ـ ودون أسباب دائمًا ـ بعض كتبي ورواياتي من الدخول والتداول في أراضيها.

لقد قال القاصّ والمسرحي الكبير المرحوم يوسف إدريس يومًا: «الحرِّيَّة الموجودة في الوطن العربي كلّه لا تكفي لكاتب عربي واحد»، وكان على صواب؛ ففي البلدان العربيّة تُقنّن حرِّيَّة الكتابة، بذرائع مختلفة وتُقطّر بالقطّارة، وتُمنع بعض الكتب حتى التراثيّة منها، حرصًا على الأخلاق(!) ويواجه الكتّاب العرب في كلّ الأجناس الأدبيّة التي يبدعون فيها بمناطق محرّمة عليهم ألّا يقربوها، وهم لا يقربونها بمنع وزجر من الشرطي الذي في رأس كلّ منهم؛ أي أنّ الرقابة الخارجيّة تتحوّل إلى رقابة داخليّة ذاتيّة، وهي أسوأ أنواع الرقابات وأشدّها وطأة على الكاتب، ولم تتخلّق دفعة واحدة إنّما بالتدريج؛ فأسلوب التدجين الذاتي هذا مدروس بعناية ومقسّط تقسيطًا مريحًا ويكون على شكل جرعات بينها فواصل زمنيّة حتى يسهل بلعها من جهة والتأكّد من مفعولها وتأثيرها من جهة أخرى.

في المقابل هناك الترهيب والترغيب، وهذا الأخير أكثر خبثًا وأشدّ مكرًا، وتقوم به صحف ومجلّات عربيّة تصدر داخل الوطن العربي وخارجه وكذلك مراكز الأبحاث الأجنبيّة المشبوهة؛ فهي تنشر المادّة المكتوبة مهما تكن مضادّة لتوجّهاتها وتدفع مقابلها مكافأة مغرية، وبالدولار أو القطع النادر، فإذا بلع الكاتب العربي أو الأستاذ الجامعي العربي الطعم، وأدمن على مثل هذه المكافآت النقديّة، يبدأ جذب الخيط، وتعود شعرة معاوية إلى شغلها في الدهاء المعروف بين

إرخاء وشدّ، إلى أن يتمّ اصطياد الكاتب بصنّارة الرفاه الموقّت الذي صار إليه، هو المحروم من الرعاية والعناية، والعاجز عن تأمين رزقه عن طريق كتبه ما دام أفضل كتاب عربي مؤلّف أو مترجم لا يطبع أكثر من خمسة آلاف نسخة تبقى أكثر من عامين حتى تنفد، رغم أنّ تعداد السكّان العرب يبلغ حاليًّا المئتي مليون نسمة ونيّفًا، معدّل الأمِّيَّة بينهم يصل إلى ستين بالمئة والطبقات الثريّة لا تطالع لأنّ للمطالعة جانبين: تربوي وحضاري. وقد سُئل الكاتب السوڤييتي إيليّا أهرنبورغ عمّا فعله الكتّاب السوڤييت خلال ربع قرن من قيام الاتّحاد السوڤييتي فقال: «لقد ربّينا جيلاً من القرّاء».

مع هذا الترهيب والترغيب في أشكالهما وألوانهما المختلفة، وعبر مسارب ناعمة وملساء كجلد الأفعى، هناك في الوطن العربي كتّاب وأساتذة جامعات كبار، لم يؤخذوا باللعبة الحرباويّة، واستعصوا على التدجين والاستيعاب وتقبّلوا إسفنجة الخلّ وهم على صلبان حرمانهم وكفاحهم في سبيل غد أفضل لوطنهم وشعبهم. لكن هؤلاء في القلّة، أمّا الأكثريّة فقد خُرّبت دوراتها الدمويّة. ولا تزال المعركة على المثقّفين العرب ومن حولهم قائمة بغية اقتناصهم واستزلامهم، أو على الأقلّ تحييدهم، فإذا لم يمدحوا لا ينتقدون، وهذا في ذاته مكسب والقانصون راضون به أو متحوّلون عنه إلى العصا والجزرة، فمن لم تنفع به هذه تنفع به تلك.

هذه التنويعات الأسلوبيّة للاحتواء أو القمع تدخل موضوع الكتابة والحرِّيَّة من بابه الخلفي؛ فالحرِّيّة لا تثمر إبداعًا، إذا لم تتوفّر لها وسائل ممارستها، وهذه الوسائل مشروطة الآن، أكثر من السابق، بسبب من تسلّع الكتاب تسلّعًا كاملاً مع «اقتصاد السوق» بعد انهيار الاتّحاد السوڤييتي ودول أوروبا الشرقيّة سابقًا، وانعدام الدافع لدى الدولة الرأسماليّة والكاتب معًا، في اختراق جدار الصوت. الدولة الرأسماليّة، في حربها الباردة التي كانت، اندفعت بعد الحرب العالميّة الثانية إلى تخفيض حصّة ربّ العمل من القيمة الفائضة، وترك قسم منها للعامل، تفاديًا للانفجار. والعمّال في البلدان الرأسماليّة الذين ترفّهوا بارتفاع حصّتهم من هذه القيمة، تدنّى نضالهم النقابي إلى المستوى الأكثر انخفاضًا، منذ أواخر القرن التاسع عشر وإلى ثلاثينيّات القرن العشرين. وما دامت الحرب الباردة قد انتهت، والاتّحاد السوڤييتي قد انهار، والطبقة العاملة الغربيّة بلا سند، فإنّ الدولة الرأسماليّة، في ترتيبات النظام العالمي الجديد، الأميركي قيادةً، لم تعد بحاجة ماسّة كالسابق إلى ترضية عمّالها وترفيههم، وهكذا تصبح قوّة عملهم المعروضة أبخس ثمنًا، وتصبح السلعة، اقتصاديّة كانت أم ثقافيّة، أبخس ثمنًا أيضًا، ووسائل إنتاجها أو ممارستها، نسبة إلى الحرِّيَّة المتوفّرة، أقلّ وجودًا. وماذا تنفع الحرِّيّة العامل إذا لم يكن هناك عمل؟ وماذا يفعل الكاتب بحرِّيّته إذا كانت سلعته لا تجد من يشتريها؟ إنّه الركود، مرّة أخرى، يستعلن في كثرة العرض وقلّة الطلب، وإنّه استشراء النهب الرأسمالي للعالم

الثالث وبلدانه الفقيرة، وبينها بلدان انحطّت بفقرها إلى درجة الجوع، لا في أفريقيا وحدها، بل في السودان معها، وهو دولة عربيّة. وهذا النهب يتمّ الآن عن طريق عولمة الاقتصاد، لصالح الاقتصاد الأقوى، الأميركي أو الغربي.

ينتج من هذا أنّ حرِّيّة الكاتب وحدها لا تكفي. الكاتب صاحب سلعة كتابيّة، فإذا لم تتوفّر وسائل إنتاجها، وتاليًا تصريفها، تنتقص هذه الحرِّيّة حتى في حال توفّرها، فكيف الحال إذا لم تكن متوفّرة أصلاً؟ إنّنا، من هذه الناحية، أمام أزمة، هي انعكاس لأزمة المركز الرأسمالي المتبوع، على العالم الفقير التابع. إذًا لا بدّ للكاتب، في الغرب الرأسمالي بدرجة أصغر، وفي العالم الثالث بدرجة أكبر، من النضال على جبهتين: جبهة انتزاع الحرِّيَّة اللازمة للكتابة، وجبهة تسويق هذه الكتابة، بعد أن تسلّعت كلِّيًّا الآن. وفي وضع مأزوم كهذا، سيجد الكاتب العربي، والفنّان العربي، في العقود المقبلة، نفسه في مأزق، يضطرّ معه إلى مزيد من الإذعان، وكذلك إلى مزيد من النضال، لإرساء دعائم مجتمع مدني، عقلاني، علماني، ديموقراطي، تُتاح فيه الحرِّيّات، ويُستعاد عصر النهضة التنويري، الضروري لنا كعرب يواجهون انحدارًا لا بدّ من العمل لإيقافه، أو تقصير مدّته، انتظارًا للصعود، ومعه امتلاك القوّة، سلاحًا واقتصادًا، وانفراجًا اجتماعيًّا، على أساس التعدّديّة السياسيّة واعتماد الحوار لغة في أرحب مداها، والحرِّيّة سبيلاً في أعمق مداليلها.

قال بابلو نيرودا: «أشهد أنّني عشت» وأقول معه «أشهد أنّني عشت» أيضًا وأنّني وجدت في هذا العيش الجميل والقبيح أنّ الحرّيّة أثمن من الخبز، وأنّ الإبداع لا يستوي دون حرّيّة، وأنّ الوطن لا يكون وطنًا بغير مبدعيه؛ فقد هتف جان بول سارتر في ذروة احتدام القتال إبّان الثورة الجزائريّة بين الثائرين الجزائريّين والمستعمرين الفرنسيّين «عارنا في الجزائر» وكان شارل ديغول رئيسًا للجمهوريّة الفرنسيّة، فطالبه المتطرّفون الفرنسيّون باعتقال سارتر، وأجابهم ديغول بحسم: «وهل أعتقل فرنسا كلّها؟» ذلك أنّ سارتر، الكاتب والفيلسوف الفرنسي المبدع، كان فرنسا كلّها، بمثل ما هو نجيب محفوظ مصر كلّها اليوم، وبمثل ما هم الكتّاب المبدعون في الوطن العربي، هم كلّ الوطن العربي، حاضرًا ومستقبلاً

عندما أضعت البحر.. مرّة أخرى!

سيّداتي سادتي!

في سفري الطويلِ «أنا الجناحُ الذي يزهو به السفرُ» أحاولُ في ذاتي أن أهربَ من ذاتي، ظنًّا منّي أنّ في الهربِ من الذاتِ، أجدُ خلاصي من دورة الفكرِ التي تلوبُ في دماغي، منقّبةً عن المستورِ فيه، وعن المسكوتِ عنه، لتظهرَهُما إلى الناسِ، فوق كلِّ ما عرفَ الناسُ عنّي في رواياتي، وفي المقابلاتِ الصحفيّةِ التي أقولُ فيها الحقيقة ولا أُبالي!

إنّني، عندَ نفسي، صفحةٌ بيضاء، لكنّني، في خبث اللاشعورِ، لستُ كذلك، وقد حملتُ صليبي على كتفيَّ منذ ستّين عامًا، ولم أجدْ من يصلبُني عليه، انتقامًا من نشداني للراحةِ، في غير أوان الراحةِ، وغير موضِعها أيضًا؛ فالكاتبُ مطالَبٌ بالكتابةِ، ولشدّ ما بتُّ أكرهُ الكتابةَ، هذه المهنة الحزينة

والقذرة، والتي لا انفكاكَ من أسرِها إلّا بالموتِ، وهذا لسوءِ الحظِّ لا يُؤاتي، حتى بتُّ أخاف ألّا أموتَ! نعم أخاف ألّا أموتَ عقابًا لي على اختراقي للمألوف.

إنّني أعيشُ «على قلقٍ كأنّ الريحَ تحتي» وأباركُ هذا القلقَ ثلاثًا، وألعنُ الطمأنينةَ ثلاثًا، وبينهما تظلُّ دودةُ الفكرِ القارضةُ تحفرُ في دماغي، والفكرُ، كما تعلمون، رهيبٌ، وعندَ كلّ غروبٍ أُردّد: «أسْجدي لله يا نفسي فقد وافَى المغيبْ/ واستريحي من عناءِ الفكرِ فالفكرُ رهيبْ» إلّا أنّ النفسَ تأبى أن تستريحَ، لأنّ دودةَ الفكر تأبى أن تستريحَ! والروح المجرَّحةُ، المدمّاة، لا تشيخ، بل تنزلُ مع صاحبها إلى القبر، بينما الجسدُ هو الذي يخون! وقد خانني جسدي.

الإشكاليّة، هنا، في البعد عن الحبرِ والورقِ، رغم أنّنا نحتاجهما في ردع كلِّ منكرةٍ، حين يعجز الضمير عن ردعِ هذه المنكرةِ! لذلك قلتُ، في سنواتٍ خلتْ من عمري، لسيّدةٍ قدّمتْ لي بيتَها على البحرِ، لأكتبَ فيه شتاءً: «إنّني، يا سيّدتي، إذا قبلتُ عرضَك، وسكنتُ بيتَك، فإنّني، فيهِ، سأفكّر دون أن أكتبَ، فأنا هاربٌ من التفكيرِ، لذلك أشكرك، وأعتذرُ إليكِ». وقبلت السيّدة زيبور أستور، كما هو واضحٌ من إهدائي في رواية «الفم الكرزي» اعتذاري، مع الشكّ في عقْلي، وهو شكٌّ مبرّرٌ تمامًا، لأنّني نصفُ مجنونٍ، نصفُ عاقلٍ، وأنا أحبُّ نصفي المجنون أكثر.

هذه الإشكاليّةُ، في البعدِ عن الحبرِ والورقِ، أو الرغبةِ في ذلك، تكرّرتْ معي في زيارتي الأخيرة لإمارة أبو ظبي، حيثُ زارني رجلٌ له في القانون مكرمةٌ، وفي الدفاع عن العدالةِ مكرمةٌ أكبرُ، هو المحامي الأستاذ محمود رضا العظْمة، وزوجتُه الفنّانة التشكيليّة السيّدةُ عطاف نصري العظمة، اللذانِ أكرماني بغير حدودٍ، وأثنيا على أدبي بغيرِ حدودٍ أيضًا، وعرضا عليّ الإقامةَ في شقّةِ الضيوفِ التي يملكانِها على البحرِ، فاعتذرت للمرّةِ الثانية، اعتذارًا لا مبرّرَ له، سوى الجنونِ الذي يدفعنُي إلى الإقامةِ في بيت أبي، وأبي ليس له بيت، في اليابسة أو على الماء.

إنّني لستُ جامعَ أوشابٍ على الشاطئِ، ولستُ ممّن يضعون أقدامهم في البحرِ، ويدّعون أنّهم عَرفُوا البحرَ، ولستُ من الذين يتأنّقون في الكَلم لوجه السفْسَطة، بل من الذين يعتصرونَ الكلمةَ، يعشقونها، يضاجعونها، ينقّبونَ عنها، كما يفعلُ الصيّادون في الماءِ المتجمّد، حتى أعثرَ عليها، لأنّه، في شرْعي، أنّ للمعنى الواحد كلمةً واحدةً، إذا لم نَجدْها علينا أن نتوقّفَ عن الكتابةِ حتى نعثرَ عليها، وفي سبيلِ العثورِ عليها، قضيتُ ليلةً كاملةً، وفي الغَدِ، وفي طقوسي عندما أكتبُ، وجدتُ الكلمةَ الضالّةَ، فوضعتُها حيثُ يجبُ أن توضعَ، ثم خرجتُ من المكتبِ إلى الشوارعِ، يدي في جيبِ بنطالي، وشفاهي تُرسل صفيرًا منغّمًا، لأغنيةَ نسيتُها الآن.

الكتابة، إذن، شرفُ الكاتبِ، في صدْقِه والكبرياءِ، وعندما كنتُ أكشِفُ لكم سرَّ شباب الروحِ وشيخوخةِ الجسد، فإنّ قولي كانَ هو القولَ الصدوقَ، فالروح تبقى شابّةً، بينما الجسدُ يخونُ، وأفضل من عَبَّر عن هذه الحقيقةِ أميرُ الشعراء أحمد شوقي الذي قال:

سلوا قلبي غداةَ سلا وتابَا ... لعلّ على الجَمالِ له عتابا

ويُسألُ في الحوادثِ ذو صوابٍ ... فهل تركَ الجمالُ له صوابا؟

وكنت إذا سألتُ القلب يومًا ... تولّى الدمعُ عن قلبي الجوابا

ولي بين الضلوعِ دمٌ ولحمٌ ... هما الواهي الذي ثكل الشبابا

وأتوقّفُ عندَ البيتِ الأخير، لأنّه صريحٌ، صادقٌ، معبّرٌ عن حقيقةِ أنّ الذي ثَكَلَ الشبابَ هما الدمُ واللحمُ، أي الجسدُ الذي يخونُ شبابَ الروحِ.

إنّ الخبْرَةَ، هنا، مردُّها لا إلى الشيخوخةِ التي صرتُ إليها، بل إلى الوعي بحالِ الروحِ والجسدِ، وإلى علمِ النفسِ الذي لا أدبَ دونه، وإلى مكايدةِ بدويِّ الجبلِ في قوله:

يا مَنْ سقانا كؤوسَ الهجرِ مترعةً ... بكى بساطُ الهوى لمّا طويناهُ

فأنا لا أطوي بساطَ الهوى، وإذا طويتُه أُعيدُ فتحُه، ما دامَ في الراحةِ بقايا نارٍ، وبقايا عتبٍ على الجمالِ، وبقايا عزمٍ مشبوب في يراعةِ القلمِ، التي ستغفرُ، أنا الخاطئ، كلّ خطاياي.

بقي أنّ الآه، في غير فرحها، مدعاة للحزن، ومدعاة

للأسى عند من صاح من شعرائنا الأفذاذ:

يا شعبُ، يا شعبي، وبعضُ القول لا يُحكى فيُضْمرْ

طبعًا لم أقلْ لهما سببَ الاعتذارِ، وفي بيتِهما المترفِ إلى حدٍّ لا يُصدّقُ، تحدّثَ الزوج إليّ عن الوطنِ، عن دمشق مدينتِهِ، التي عشتُ فيها حتى الآن، اثنين وخمسينَ عامًا، ولم أكتبْ عنها اثنتين وخمسين كلمةً، سوى مقطوعةِ «هل تعرفُ دمشق يا سيّدي؟» وهذه، في المعالجةِ، تحوّلتْ إلى قصّةٍ طويلةٍ، لا علاقة لها بدمشق أصلاً، ولم أقلْ للسيّدة الفنّانةِ، التي تلطّفتْ، وهي تتّقد حماسةً، بإطلاعي على لوحاتها، وما فيها من فنٍّ نابضٍ بالتأثّرِ، وبالمشاركة الوجدانيّةِ، مع كفاح إخوتنا في فلسطينَ، وفيها، إلى هذا، صرخةٌ مدوّيةٌ: لا لضرب العراق! الذي ضربه الآن الأميركيّون باسم الحرِّيَّة والعدالة فتأمّلوا!

إنّ العرضَ الصادقَ، في أن أُقيمَ ما شئتُ، في بيتِ ضيافتهما على البحر، كانَ أخويًّا، حميميًّا، فيه إلحاحٌ مسربلٌ باللطفِ، إلّا أنّ هذا الإلحاح في الدعوةِ، قُوبلَ منّي بإلحاحٍ في الاعتذارِ، لأنّني لو سكنتُ بيتَهما لن أكتبَ، بل سأفكّرُ، وأنا هاربٌ من التفكير، وهذا ما لم أقلْه، كيلا يشكّا في سلامة عقلي، كما شكّتْ قبلهما، تلكَ السيّدةُ في سلامةِ هذا العقل، الذي ألعنُه صباحَ مساءَ، لأنّنا، في هذا الوطنِ العربي، كلّنا عقلاءُ، والعقلُ هو سببُ كلّ مصائبنا، وكلّ هزائمنا أيضًا.

أمّا ما فعلته، في غرفتي بالفندقِ، بعد عودتي إليه، فهو التالي: كتبت لهما رسالةً، قلتُ فيها: «أن نندمَ على الصمتِ أفضلُ من أن نندمَ على الكلامِ» وهذه حكمةٌ تعلّمتُها من غيري، وقد اقترفتُ، في بيتِكما المترفِ، خطأ الكلامِ الذي ندمتُ عليه، لأنّهُ، كما يُخيّل إليّ، كان نافلاً في بعضِه، وكان عليّ أن أُصغي أكثَرَ ممّا أتكلّمُ، لو أنّ الموعظة البوذيّة نفعتْني وأنا مشرّدٌ في الصين. فلغة القانونِ فنٌّ من الفنِّ، وكانَ عليّ أن أستوعبَ حقيقتَها، ونغمُ الفرشاةِ، في إبداعاتِ السيّدةِ الفنّانةِ، كان جديرًا بالإصغاء إليه، لأنّه يقولُ ولا يقولُ، وفيهِ ما يُتذوّقُ بغيرِ قولٍ، ويتناغمُ مع المشاعرِ دون فضولٍ في اللفظِ، مهما يكنْ عذْبًا طَليًّا.

«إنّني، عندَ نَفْسي، أنِفٌ في كبرياءِ الرجولةِ، وتأبى شمائل هذهِ الرجولةِ، في عرْفِ الوفاءِ، إلّا أن تكونَ على وفاءٍ أكبرَ، وهذا ليسَ بمستطاعٍ، كوني، الآنَ، في فقرٍ أبيضَ، وفي طفولتي، عندما كنت عاريًا حافيًا جائعًا، كنتُ في فقرٍ أسودَ، وفي الحالينِ لا أبلغُ «أن أُجزي على الجميلِ جميلاً». لذلك أُحسُّ، أمامَ الصدقِ، والعفويّة، والتلقائيّةِ، والحميميّةِ، أنّي مَدينٌ ولستُ بدائنٍ، وهذا إثمٌ لا أقترفه، ففي البساطةِ وُلدتُ، وعليها نشأتُ، وفي موكِبها أرحلُ، وهذا قَدَري، الذي في ثناياه طموحي. وإنّي على كفاءٍ مع هذا الطموحِ، فالدنيا ابتهالاتٌ بكلماتي، وهذا حسبي، وهذا صلحي مع هذه الدنيا بالنسبة لشخصي وهذا خِصامي معها من أجلِ غيري: الفقراء، البؤساء،

والمعذّبون في الأرض!

«تُرى لو عَلِمَ الصديقان، أنّ الذي كان في بيتِهما خرّيجَ سجونٍ، لا خرّيجَ جامعاتٍ، وأنّه، في شقاءِ الغُرْبةِ، كان خرّيجَ المنافي، لا نزيلَ فنادقٍ، من أيّ درجةٍ كانت، وأنّه، في سبيلِ الوطنِ والشعبِ، قد عَرَفَ التعذيبَ أيّام «الانتداب» الفرنسي حتى ازرقّتْ منه العيونُ في بياضِها، لا الجسمُ وحدَه في سمرتِه، تُرى لو عَلِما ذلك، أَمَا كانَ موقفُهما منّي قد تغيّرَ!؟ ما أظنُّ، لأنّهما في الأريحيّة «أندى العالمينَ بُطونَ راحِ» وفي الوطنيّة يأتيان في مقدّم الركْب، إلّا أنّ الاحتيالَ واجب، تفاديًا للانجرافِ مع العاطفةِ، أو للانزياحِ عن خطّ العقلِ، وبسبب من أنّني أؤثرُ أن أبقى حيثُ أنا، على أديم النضال بالقلم، بعد أن ناضلتُ طويلاً بالجسدِ، أداءً لواجب، لا منّةَ فيه، ولا تعبَ معه، تمامًا كما قال صديقي الشاعر شوقي بغدادي: «وطني أحبّك لا ليرفعني حبّي، ولكن تغلبُ الشِيَمُ».

«بحّارٌ أنا، والبحّارُ الصادقُ، في شرفِ اللجّةِ، وعلى اسمها، يجهدُ كي يمحوَ من ذاكرتِه، من تاريخهِ، لحظةً كانَ فيها جبانًا، ولن أزعمَ أنّني كنتُ في الشجاعةِ ربّانًا، وأنّني، في عواصفِ الدهرِ، بحرًا وبرًّا، كنتُ الذي لا يخافُ. بلى! خفتُ، غير أنّني صمَدتُ لخوفي، تغلّبتُ عليه، وهذه هي الشجاعةُ في قاموسي، وقد عشتُ، عمري كلَّه، مع المغامرةِ على موعدٍ، فحيث تكون هي، أكونُ أنا، ورأيتُ الموت ولم

أَهَبْهُ، فالموتُ جبان لمن ينذرُ له نفسه، وها هي الثمانون تضعني على مُنزلقِها، والموتُ الذي أسعى إليه يفرُّ منّي.

«أقول هذا، حتى لا أخدعكم، سيّداتي سادتي، في شيءٍ، حتى لا أذأبُ كما يذأبُ الذينَ في تطلّعِهم إلى ما في أيدي غيرهم، ينافقونَ، ويفخرونَ في نفاقِهم، دونَ أن يرفَّ لهم جفنٌ، وحتى تغلقُوا بابَكم في وجهي، أنا خرّيجَ السجونِ، شرّيدَ المنافي، معتذرًا عن الإقامةِ في بيت ضيافتِكم، لأنّني، فيه، لن أكتبَ، بل سأفكّر، والتفكيرُ مهنةٌ شاقّة لو تعلمون..

«هل أستطيع الهربَ من دودةِ التفكير التي في دماغي تقولون؟ وما قيمة الحياةِ بغير تفكير في شؤونِها وشجونِها؟ ولماذا كنّا، وكان الفكرُ، إذا ما كان دأبنا السعيَ لإعدامِه؟ ولماذا نَقْنَطُ إذا رأينا الكأس فارغة، «ما دام في كلّ عامٍ ينضج العنب؟» ولماذا أهرب من الهجر إلى الهجرِ، في عبثيّة لا طائلَ تحتَها؟

«في الجواب أكرّر القولَ: إنّني لا أسكنُ إلّا في بيتِ أبي، وأبي ليس له بيتٌ على البحرِ، أو في الرياح الأربعِ، وهذا هو السبب في اعتذاراتي لمن عرضوا استضافتي مشكورينَ، ويكفيني، من مكافآتِ السماءِ، أن أتملّى عناقيدَ نجومِها، وهي تتدلّى، مشعّة وبهيّة!

نحن أدرى، وقد سألنا بنجد

أطويل طريقنا أم يطول؟

وكـثـيـر مـن الـسـؤال اشـتـيـاق

وكـثـيـر مـن ردّه تـعـلـيـلُ

وفي الجواب أقول: إنّ الطريق طويلٌ جدًّا، وإنّ الجزْرَ الذي نحن فيه، لن يتحوّلَ إلى مدٍّ إلّا بعدَ عقودٍ، فمن تَعِبَ فرغب في أن يستريحَ فله الحقّ، ومن أُصيبَ بالإحباطِ، والإحباطُ صار بالنسبةِ إلينا قدرًا، نعذُرُه على إحباطه، ومن أدركهُ اليأسُ نعذرُهُ على يأسِهِ، ولا نطلبُ، مقابلَ ذلك كلِّه، إلّا أن يعْذرونا، أو يعذروني، لأنّني لم أيأسْ، ولن أيأسَ، لأنّني «الحجرُ الذي رفضَه البنّاؤونَ فصارَ رأس الزاويةِ» ولأنّني والبحرُ عروةٌ وثقى!».

أنتم تسألون عن حياتي.. وأنا أُجيبكم!

I

من المعروف أنّني أضعت طفولتي بالشقاء، وشبابي في السياسة، وكنت في فقر أسود، وأنا، الآن، في فقر أبيض. وقد ناضلت بجسدي، والآن أناضل بقلمي، وإنّ المناضلين الشرفاء الصادقين، هم الذين قاوموا الاستعمار الفرنسي والإقطاع، وقد كان لي حظّ الانتماء إليهم، والتعرّف إلى حقيقة الكلمة وشرفها من خلال إرشاداتهم. وإنّ هذا المجتمع، في الطفولة واليفاعة والشباب، أعطاني تجارب لا تُنسى، أفدت منها في كفاحي بالقلم على امتداد حياتي الأدبيّة التي قاربت الخمسين الآن. وكي أختصر الكلام على المحيط السياسي أقول: عرفته، رافقته، كنت قريبًا من أبرز رجاله، منذ هجرة عائلتي من اللواء العربي (الإسكندرونة) إلى اللاذقيّة، وقبل ذلك بقليل، وبعد ذلك إلى الوقت الراهن. غير أنّ كفاحي، على الجبهة الثقافيّة، وما فيها من كرم الكفاح، قد جعلني أكتشف حقائق كثيرة، ومنذ

وقت مبكّر، لذلك تركت الانتماء الحزبي، منذ منتصف الستّينيّات، وكرّست حياتي للأدب، وللرواية تخصيصًا، وسأبقى كذلك، دون أن يعني ذلك نسيان الماضي، أو عدم الأمانة للمنطق. فأنا أعرف أنّ اليوم الذي أنسى فيه ناسي، أو أُدير لهم ظهري، أو ينقطع حبل السرّة الذي يربطني بهم، سيكون يوم توقّفي عن الكتابة، وتاليًا عن الحياة.

ولندع الكلمات الكبيرة، فإنّني لا أنسجم معها، رغم أنّ الحديث قد اضطرني إلى مقاربتها، فما أقوله لقرّائي أنّني وُلدت في حيّ فقير بائس، في مدينة اللاذقيّة، وفي دار تتقاسم عائلات فقيرة غرفها، وقد اضطرّت أمّي إلى حرماني من نصف حليبها، وبيع النصف الآخر إلى ابن عائلة ثريّة كانت تعمل عندها. . يُقال إنّ أخي في الرضاعة كان «جول فيتالي» وهو من الأغنياء الذين عاشوا حياة تَرِفَة، ولم أر له وجهًا، لأنّه ارتحل قبل سنوات. لقد صوّرت وضعي الصحّي العليل في سيرتي الذاتيّة، ومنها تعرفون وضعي العائلي الفارق، حتى الاختناق، في حفرة شقاء تدافعناه، بكلّ ما نملك من إرادة، فلم يندفع! أمّي وأخواتي الثلاث، عملن كخادمات. عملت أنا الصبي الوحيد، الناحل، أجيرًا. كذلك عمل الوالد، سليم حنّا مينة، الخائب في كلّ أعماله ونواياه، حمّالاً في المرفأ، بائعًا للحلوى، وللمرطّبات، مرابعًا في بستان قاحل إلّا من أشجار التوت، ومربّيًا لدود القزّ، ثم عاود، بين كلّ هذه الأعمال وأثنائها، سيرته في الترحال، كأنّه «موكل بفضاء الله يذرعه». كان أبي،

رحمه الله، رحّالة من طراز خاصّ، لم ينفع ولم ينتفع برحلاته كلّها. . أراد الرحيل تلبية لنداء المجهول، تاركًا العائلة، أغلب الأحيان، وفي الأرياف، للخوف والظلمة والجوع. ولطالما تساءلت: وراء أيّ هدف كان يسعى. لا جواب طبعًا. إنّه بوهيمي بالفطرة، وقاصّ بالفطرة، يصنع من أيّ مشهد حكاية مشوّقة، وقد أفدت منه، في هذا المجال فقط. كان رخوًا إلى درجة الخَوَر أمام شيئين: الخمرة والمرأة! لم يفز بالمرأة ولم يستمتع بالخمرة. كان يسكر إلى درجة التعتعة والسقوط والنوم حيث يسقط، لمجرّد كأس أو كأسين. يا للأب المثالي، الذي كافأته، في السنوات الخمس عشرة الأخيرة من عمره، مكافأة حسنة، متجاوزًا عن كلّ ما ألحق بالعائلة من أذى، وليس في ذلك منّة، بل واجب البنوّة وحده.

في اللاذقيّة، حيث وُلدت، تشرّد الوالد، وجرّ العائلة معه، إلى متاهة الضياع، وهذا التشرّد فرض عليّ البحث عن اللقمة أوّلاً، وفرض عليّ، ثانيًا، العمل الشاقّ في السياسة، وأمنيتي، الآن، أن أتشرّد من جديد، لأنّني أكاد أتعفّن بين الجدران الأربعة من مكتبي في الوظيفة، ومن مكتبي في البيت، الذي أعمل فيه وسط شروط لا إنسانيّة!

الرحلة، في الخطوات الأولى، انطلقت من اللاذقيّة إلى سهل أرسوز قرب أنطاكية، مرورًا بإسكندرونة، ثم اللاذقيّة من جديد، وبيروت، ودمشق، وبعد ذلك تزوّجت، وتشرّدت مع

عائلتي لظروف قاهرة، عبر أوروبا وصولاً إلى الصين، حيث أقمت خمس سنوات، وكان هذا هو المنفى الاضطراري الثالث، وقد دام، هذه المرّة، طويلاً، حتى قارب العشرة من الأعوام، لم أكتب فيها حرفًا واحدًا، وبذلك ضاع استواء رجولتي، بين الثلاثين والأربعين من عمري، سدًى، فالنبتة قلّما تعيش إلّا في تربتها! هناك استثناءات كثيرة طبعًا، لكنّ غربتي، وهي مهنتي الشاقّة، تختلف جدًّا، بسبب ما ترتّب عليّ من كدح لإعالة أسرتي، التي كان نصفها معي، والنصف الآخر في اللاذقيّة.

لقد تزوّجت مريم دميان سمعان، أصلها من بلدة السويديّة، مصبّ نهر العاصي قرب أنطاكية، وكانت مقيمة في اللاذقيّة عندما التقيتها وتعارفنا، بعد هجرة العائلة من اللواء العربي السليب. إنّها إنسانة طيّبة، شعبيّة، لم تتجاوز دراستها الصفوف الابتدائيّة، أي أنّها مثلي من ناحية التحصيل العلمي، لكنّها بذكائها الفطري، تفهّمت ظروفي كمناضل سياسي ضدّ الانتداب الفرنسي قبل الزواج، كما تفهّمت ظروفي بعد الزواج ككاتب، فوفّرت لي، في الحالتين، جوًّا أُسرويًّا سعيدًا، قوامه نكران الذات إلى حدّ التضحية، في سبيل إنشاء الأسرة، ومشاطرتي آلام الغربة، وتوفير الهدوء والصفاء اللازمين لي ككاتب، وإنّي مدين لها بنجاحي. وهذه مناسبة أتحدّث فيها لأوّل مرّة عن هذه الإنسانة الرائعة دائمًا، التي تتحلّى بصفات نبيلة، ومنها الصبر، والتدبير، والخلق الكريم، حتى أجد نفسي

عاجزًا عن الكلام الذي يفيها حقّها، بسبب من أنّها تفانت، ولا تزال، لإسعادي، وللسهر على الأسرة في غيابي وحضوري.

إنّنا، هي وأنا، نقترب من نصف قرن من الزواج الناجح، والفضل في نجاحه يعود إليها حصرًا، لأنّها تتيح لي حرِّيّة اكتساب التجارب من جهة، والمناخ الملائم للكتابة عن هذه التجارب من جهة أخرى.

رُزقنا خمسة أولاد، بينهم صبيّان، هما سليم، توفّي في الخمسينيّات، في ظروف النضال والحرمان والشقاء، والآخر سعد، أصغر أولادي، وهو ممثّل ناجح جدًّا الآن، شارك في بطولة المسلسل التلفزيوني «نهاية رجل شجاع» المأخوذ عن رواية لي بهذا الاسم، فأبدى مقدرة غير عاديّة، في أداء دور «مفيد الوحش» عندما كان صغيرًا، وهذا المسلسل لقي إعجابًا مثيرًا، وبُثّ إلى كلّ أنحاء العالم، كما شارك بدور البطولة «شاهين» في المسلسل التلفزيوني المهمّ «الجوارح»، وكِلا المسلسلين من إخراج نجدت إسماعيل أنزور، هذا الإنسان الموهوب إلى درجة الإبهار.

لدينا ثلاث بنات: سلوى (طبيبة)، سوسن (مخدّرة وتحمل شهادة الأدب الفرنسي)، وأمل (مهندسة مدنيّة)، وقد تزوّجن، ولم يتبعنني على طريق جهنّم: طريق الأدب!

بداياتي الأدبيّة الأولى كانت متواضعة جدًّا، فقد أخذت، منذ تركت المدرسة الابتدائيّة (هذه التي تعلّمت فيها فكّ الحرف

كما يقولون) بكتابة الرسائل للجيران، وكتابة العرائض للحكومة. كنت لسان الحيّ إلى ذويه، وسفيره المعتمد لدى الدوائر، أقدّم لها بدلاً من أوراق الاعتماد، عرائض فيها شكاوى المدينة ومطالبها، وهنا، كنت صداميًّا منذ طفولتي، بل منذ يفاعتي.. إنّنا جياع، عاطلون عن العمل، مرضى، أُمِّيُّون، فماذا يريد أمثالنا؟ العمل، الخبز، المدرسة، المستشفى، رحيل الانتداب الفرنسي، مطالبة الحكومة، في فجر الاستقلال، أن تفي بوعودها المقطوعة لأمثالنا من الفقراء، بعد نضالهم الطويل لتحقيق هذا الاستقلال!

أنتم تسألون عن حياتي.. وأنا أُجيبكم!

II

البداية ترتبط بالنهاية دائمًا، فعندما تكون النهاية سيّئة، تجبّ البداية الحسنة. والمسألة، بعد، ليست في السجن، بل في ما يكونه المرء بعد السجن، وليست في المنفى، وإنّما ما بعد المنفى، وقد سُجنت مرّات عديدة، في نضالي ضدّ الاحتلال الفرنسي، وعرفت المنافي للأسباب ذاتها، ثلاث مرّات، وتابعت، بعد الاستقلال، كفاحي لتحقيق ما أمكن من مطالب الشعب الضروريّة؛ وهذه كانت بدايتي، وقد دفعت الثمن، لأنّ المسؤولين، آنذاك، وجدوا فيّ مخلوقًا يطالب بقوّة، بإلحاح، بجرأة، مع أمثاله، بما هو حقّ لهم. وماذا كنّا نخشى؟ في السجن نجد اللقمة، وفي تحقيق هذا المطلب أو ذاك نلقى العزاء، ولم يكن لدينا ما نخاف عليه، لأنّنا، أصلاً، مخلوقات العالم السفلي.

بعد ذلك، وأنا حلّاق في اللاذقيّة، كنت أبيع جريدة

«صوت الشعب» الناطقة باسمنا ونيابة عنّا، وعن المسحوقين من أمثالنا. كان ذلك خلال الحرب العالميّة الثانية، وكنّا ضدّ النازيّة، وضدّ الاحتلال الفرنسي، وضدّ آغواتنا، وقد تدرّجت من كتابة الأخبار والمقالات الصغيرة، في صحف سورية ولبنان، إلى كتابة القصص القصيرة. بدأت حياتي الأدبيّة بكتابة مسرحيّة دونكيشوتيّة، صرخت فيها على كيفي، غيّرت العالم على كيفي، أقمت الدنيا ولم أقعدها.. ضاعت المسرحيّة ومنذئذ تهيّبت الكتابة للمسرح، ولا أزال. القصص ضاعت أيضًا. لم أشعر بالأسف. وكيف أشعر به وحياتي نفسها ضائعة؟ المهمّ أنّني لم أفكّر، وأنا حلّاق، وسياسي مطارَد، بأنّني سأصبح كاتبًا. كان هذا فوق طموحي، رغم رحابة هذا الطموح.. صدّقوني أنّني، حتى الآن، كاتب دخيل على المهنة، وأفكّر، بعد هذا العمر الطويل، بتصحيح الوضع والكفّ عن الكتابة، فمهنة الكاتب ليست سوارًا من ذهب، بل هي أقصر طريق إلى التعاسة الكاملة. لا تفهموني خطأ. الحياة أعطتني، وبسخاء. يقال إنّني أوسع الكتّاب العرب انتشارًا، مع نجيب محفوظ بعد نوبل، ومع نزار قبّاني وغزليّاته التي أعطته أن يكون عمر بن أبي ربيعة القرن العشرين.

يطالبونني، في الوقت الحاضر، بمحاولاتي الأدبيّة الأولى، التي تنفع النقّاد والدارسين، لكنّها، بالنسبة إليّ، ورقة خريف سقطت!

وقد كنت، كما هو معروف، يساريًّا وسأبقى.. أمّا لماذا الأمر كذلك، فإنّ هذه «اللماذا» في غير محلّها! تصوّروا ابن العالم السفلي، العاري، الحافي، الجائع، مثلي ومثل ناسي، ثم نكون في اليمين، الذي يتغذّى أطفاله بالشيكولاتة ويركبون الكاديلاك! مفارقة أليس كذلك!؟

الرواية الأولى التي كتبتها كانت «المصابيح الزرق»، لكنّني لم أفكّر بشرارتها، أهي حمراء أم زرقاء!! وهل أنا نيرودا حتى تطلق قصائدي شرارات!؟ إنّني بابا نويل أوزّع الرؤى على الناس، كي أفتح عيونهم على الواقع البائس... وأحسب أنّني ناجح إلى حدّ ما، لأنّ كلماتي التي أكلت عيوني، على مدى نصف قرن، لم تكن مجّانيّة. لقد حرصت دائمًا على شيئين: الإيقاع والتشويق! وكتبت لغايتين: توفير المتعة والمعرفة للقرّاء، وهذا سرّ نجاحي الكبير، فلا أبوح به إلّا للنشر! تأمّلوا!!!

يُقال إنّ البحر كان دائمًا مصدر إلهامي، حتى إنّ معظم أعمالي مبلّلة بمياه موجه الصاخب، وأُسأل: هل قصدت ذلك متعمّدًا؟ في الجواب أقول:

في البدء لم أقصد شيئًا. لحمي سمك البحر، دمي ماؤه المالح، صراعي مع القروش كان صراع حياة.. أمّا العواصف فقد نُقشت وشمًا على جلدي. إذا نادوا: يا بحر! أجبت أنا! البحر أنا، فيه وُلدت، وفيه أرغب أن أموت.. تعرفون معنى أن

يكون المرء بحّارًا؟ إنّه يتعمّد بماء اللجّة لا بماء نهر الأردنّ، على طريقة يوحنّا! أسألكم: أليس عجيبًا، ونحن على شواطئ البحار، ألّا نعرف البحر؟ ألّا نكتب عنه؟ ألّا نغامر، والمغامرة احتجاج؟ أن يخلو أدبنا العربي، جديده والقديم، من صور هذا العالم الذي هو العالم، وما عداه، اليابسة، جزء منه!؟

البحّار لا يصطاد من المقلاة! وكذلك لا يقعي على الشاطئ، بانتظار سمكة السردين التافهة. إنّه أكبر، أكبر بكثير، وأنا هنا أتحدّث عن البحّار لا عن فتى الميناء! الأدباء العرب، أكثرهم لم يكتبوا عن البحر لأنّهم خافوا معاينة الموت في جبهة الموج الصاخب. لا أدّعي الفروسيّة، المغامرة نعم! أجدادي بحّارة، هذه مهنتهم، الابن يتعلّم حرفة أهله، احترفت العمل في الميناء كحمّال، واحترفت البحر كبحّار على المراكب. كان ذلك في الماضي الشقيّ والماجد من حياتي، بعد ذلك، وفي الحرب العالميّة الثانية، توقّف العمل في البحر، اشتغلت في مهن كثيرة، من أجير مصلّح درّاجات، إلى مربّي أطفال في بيت سيّد غني، كان يسومني العذاب مرًّا إذا بكى طفل، أو مرضت طفلة، إلى عامل في صيدليّة، إلى حلّاق، إلى صحافي، إلى كاتب مسلسلات إذاعيّة باللغة العامِّيَّة، إلى موظّف في الحكومة، مع كلّ ما تقوم به الوظيفة من تدجين بطيء، إلى روائي، وهنا المحطّة قبل الأخيرة، أي قبل غزل الظلمة في حضن الثرى.

هذه المسيرة الطويلة كانت مشيًا، وبأقدام حافية، في حقول من مسامير.. دمي سال في مواقع خطواتي. أنظر الآن إلى الماضي، نظرة تأمّل حياديّة، فأرتعش. كيف، كيف!؟ أين، أين!؟ هناك البحر وأنا على اليابسة!؟ أمنيتي الدائمة أن تنتقل دمشق إلى البحر، أو ينتقل البحر إلى دمشق.. أليس هذا حلمًا جميلاً؟ السبب أنّني مربوط بسلك خفي إلى الغوطة، ومشدود بقلادة ياسمين إلى ليالي الشام الصيفيّة الفاتنة، وحارس مؤتمن على جبل قاسيون، ومغرم متيّم ببردى، لذلك أحبّ فيروز والشآميّات.

هذا كلّه جميل، لكنّني غريب في غربته، قولة أبي حيّان التوحيدي. غريب عن البحر: بيتي، حديقتي، ملعبي، فكيف تكون الهناءة والحبيب الأزرق بعيد؟ تعويضًا، أسترجع الماضي، أكتبه، أعوّض بما هو كائن، عمّا كان، أهدم العالم وأُعيد بناءه. أستحضر تجارب البحر، أشدَّها هولاً، أكتب وأكتب: ثماني روايات عن البحر، ولم أزل في المقدّمة من هذا السِّفر الذي سيكتبه الآتون بعدي من الأجيال الشابّة، إذا لم تكن قلوبهم من تراب!

أكره الطرق المعبّدة، دأبي اكتشاف المناطق المجهولة في أدبنا: البحر، الغابة، الجبل، الثلج، المعركة الحربيّة، البلدان البعيدة، النضال الوطني السرّي، الموت، الجنون، الشجاعة،

البطولات الشعبيّة، الموروثات والمأثورات والصور الغريبة. أكره، أيضًا، نصفي العاقل. لماذا، نحن الأدباء العرب، في العقلاء جدًّا؟ ولماذا في القَعَدَة؟ وأين الجنون والانتحار وعدم الانتماء؟ لا أحبّ الذين يستريحون على مؤخّراتهم!

في أعمالي الأدبيّة (٤٠ رواية حتى الآن) شخصيّات كثيرة جدًّا: هناك عالم متكامل من مخلوقات متنوّعة متباينة، على أرضيّة واقعيّة، تمتزج معها الرومانتيكيّة وتتبلور في تصرّفاتها والأقوال، «روائي رومانتيكي» هذا هو عنوان دراسة الدكتورة نجاح العطّار، التي نُشرت في «الطريق» و«المعرفة» ومجلّات أدبيّة أخرى، ذلك أنّ الواقعيّة، كما ترى الناقدة الدكتورة العطّار، تتّسع، وتستوعب، كلّ المدارس الأدبيّة.

أذكّر هنا بطرفتين: أولاهما أنّني كلّفت صديقًا بأن يجمع لي أسماء شخصيّات رواياتي، قبل أن أبدأ كتابة رواية «النجوم تحاكم القمر»، فقام بالمهمّة حتى عجز عنها. قالي لي: «هناك أكثر من (٥٦٠) شخصيّة، في عشر روايات فقط، فكم يكون العدد في الروايات العشر الأخرى؟ إنّني، وأنا أقرأ الرواية، تستهويني الأحداث، فأنسى إحصاء الشخصيّات، ويكون عليّ أن أعود من جديد، وهذا ما لا أستطيعه.. يا للغرابة!». ضحكت طبعًا وقلت «أنا تلميذ بالنسبة لأستاذي نجيب محفوظ، فكيف لو كلّفك هو بما كلّفتك أنا به؟».

الطرفة الأخرى أنّ أديبًا من اللاذقيّة، هو الأستاذ سمير سكاف، قام بمحاولة من هذا النوع، دون تكليف طبعًا، وقد كتب إليّ، بعد أن أعياه الجواب على السؤال التالي: «من أيّ متحف بشري جئت بهذا الحشد من المخلوقات، التي لا يشبه أحدها الآخر!؟ إنّني ألجأ إليك، وأنتظر الجواب!». ضحكت ولم أجب، أنا نفسي لا أعرف، وأحسب أنّ هذا السؤال من باب التعجيز، وأشهد أنّني عاجز!

إذن، بمقياس كهذا، كيف أحصي الشخصيّات الروائيّة التي تركت بصماتها في ذاكرتي؟ كيف أعدّ الشخصيّات التي لم أكتبها بعد، والتي لا تزال حبيسة في طاسة رأسي، تدقّ على صدغيّ طالبة الخروج إلى النور؟ أحيلكم، في الجواب، على روايتيّ «النجوم تحاكم القمر» و«القمر في المحاق» ففيهما متحف مخلوقات أكبر بكثير من المتحف الذي سألني عنه الأديب سمير سكاف.. عرفتم الآن، لماذا أنا معذّب، ولماذا أفكّر باعتزال الكتابة!؟ إنّها «ملهاة إنسانيّة» كاملة! وإنّها لسخرية أن تحاكم الشخصيّات الروائيّة مبدعها الروائي، بكلّ ما تعنيه المحاكمة، التي يتّهم فيها المؤلّف عناد الزكرتاوي بقتل ديمتريو، بطل «مأساة ديمتريو» ويُحكم عليه بالإعدام مع وقف التنفيذ، حتى يكمل كتابة ما تبقّى من روايات وقصص! وهو، المؤلّف، يصرخ ناشجًا: «نفّذوا! نفّذوا!»، ذلك أنّنا، بعبارة واحدة، محكومون جميعًا بالإعدام مع وقف التنفيذ، حتى

تتواصل حياة الأديب العربي التي هي، مع التخفيف والرحمة، حياة تعاسة دراماتيكيّة بامتياز!

في طفولتي، كنت في فقر أسود، وفي شيخوختي في فقر أبيض، أي أنّها «مستورة»! حسب تعبير إحدى بناتي، وأجزم أنّ حياة زملائي من الكتّاب أسوأ من حياتي، لأنّها غير «مستورة»!

الفهرس